جامعة القاهرة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

أضواء علي النفس عندابن سينا

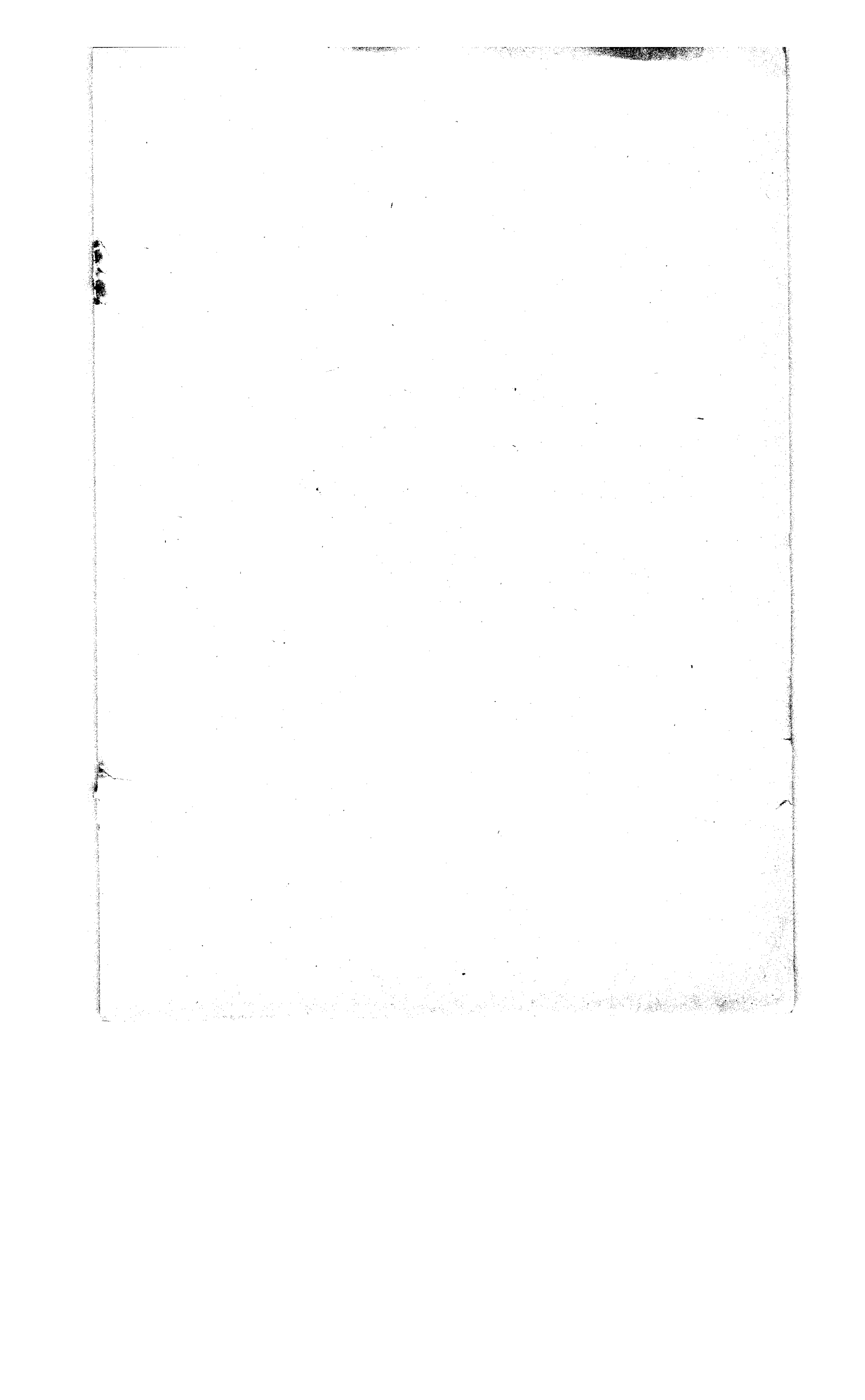
تأليف أ.د/ محمد رشاد عبدالعزيز
الأستاذ المساعد بجامعة الازهر

١٤٠٨-١٩٨٧م
الطبعة الاولي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾

صدق الله العظيم «قرآن كريم»





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على معلم الإنسانية الخير سيدنا محمد النبي الأمي الذي بعث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واتبع سبيله إلى يوم الدين .

وبعــد . . .

فليس ثمة ريب في أن الفكر الفلسفي الإسلامي هو التعبير المتجدد لأمة الإسلام العظيمة ، فليس في حياة المسلمين ولا في تاريخهم من حقائق - بعد قرآن ربهم وسنة نبيهم - أخطر ولا أدق من حقائق هذا الفكر الفلسفي .

ولقد شمل هذا الفكر آفاقا واسعة ، واقتحم ميادين متعددة ، وأقام حضارة ذات طابع خاص يميزها عن غيرها من الحضارات .

ولقد شارك ابن سينا - بفكره المتوقد - بنصيب كبير في صنع أسس هذه الحضارة ، بل وفي دفع عجلة التقدم الإنساني كله .

ومن هنا وجدنا ذلك الاهتمام من علماء الغرب بالشيخ الرئيس - في عيده الألفي - تنويها بفضله واعترافا بعلمه وإشاده بفكره ، وتقديرا لشخصيته الماجدة التي حملت إلى أوربا حكمة الأغريق ونقلت إليها أسرار المعرفة البشرية .

وقد برهن أولئك الغربيون على ذلك التقدير بدراساتهم الجدية العميقة التى خصصوها لتلك الشخصية الفذة التى تفوق المئات من الشخصيات العالمية الممتازة .

ولم يكن علماء الغرب وحدهم هم الذين اهتموا بفكر ابن سينا ، فقد جذبت فلسفة الرجل الكثير من الشرق والغرب معا ، لما فيها من عمق وإثارة لمشكلات كانت موضع مناقشات مستفيضة عند فلاسفة العصور الوسطى وأبحاث وإجابات هى حرية بأن تكون موضع تأمل واهتمام المفكر الحق ، ولما فيها من امتزاج عجيب بين فكر أرسطى وفكر افلاطينى وفكر إسلامى ، ولما فيها من جدة قد نعدمها عند كثير من الفلاسفة الآخرين .

وإذا عدنا إلى تاريخ الفلسفة وجدنا اسم الأستاذ الرئيس يتردد - فى أرجاء الدنيا - بلا انقطاع ، وسيظل يتردد ما بقيت لفظة فلسفة أو كلمة علم .

وإذا كان ابن سينا قد تأثر بمن سبقوه ، فإنه - دون شك - قد أثر فيمن جاء بعده ، حيث تتلمذ على فلسفته عباقرة أفذاذ من هنا وهناك قضوا كثيرا من أوقاتهم فى دراسة فكره تأييدا أو معارضة ، ولم يفعلوا ذلك إلا لأنهم وجدوا فى فلسفته عناصر جديدة ومقومات خاصة تميز منهجه عن المناهج السابقة عليه ، بحيث يمكن القول : بأنه ترك طابعه الدائم على الفكر الفلسفى .

ويسعدنى - اليوم - أن أقدم شيئا من فلسفة الرجل الذى كان موضع اهتمام خاص من فيلسوفنا ، وموضع اهتمام وتقدير

وإعجاب من الذين جاءوا من بعده . وأعنى فكر ابن سينا فى النفس البشرية .

فقد كان عالم النفس بالنسبة للشيخ الرئيس هو المجال الأرحب فى فلسفته وبنائها الفوقى الذى انطلق إليه من عالم الحس إلى عالم الباطن حتى عالم الجنس الأعلى .

لقد جمع فيلسوفنا ـ فى هذا المجال ـ أشتات المذاهب كلها واختار منها الطريق الذى أراد ، متوخيا بذلك أن يسجل موقفا معينا له خاصا به ، دقيق المعالم واضح السمات محدد القسمات وهذا وحده يكفى للرد على هؤلاء الذين أرادوا أن يجردوا فلاسفة الإسلام ـ ومعهم ابن سينا ـ من كل عبقرية وابتكار :

وإننى أبادر فأقول لهؤلاء وغيرهم من من الفلاسفة تحمل أفكاره طابع الابتكار والأصالة فى كل زواياه وأبعاده ؟ .

إن افلاطون ـ الفيلسوف الشهير ـ قد تأثر بالشرقيين ، وسقراط(١) وبفيثاغورث ـ بوجه خاص ـ فى بعض جوانب فلسفته وأرسطو ـ المعلم الأول ـ .

---

(١) راجع هذه القضية فى بحثنا « مدخل للفلسفة الاسلامية » ص ١٢٢ ، طبعة أولى سنة ١٩٨٧ دار العلم للطباعة .

(٢) اعترف أفلاطون نفسه بهذا عندما قال « شكر الله لأنه خلقنى يونانيا لا بربريا حرا لاعبدا ، رجلا لا امرأة ، وشكر له لأنه خلقنى فى عهد سقراط » راجع ص ٢٤ ـ الفلسفة العربية عبر التاريخ ـ رمزى نجار ـ طبعة ثانية ١٩٧٩ م بيروت .

كما يقال : قد تأثر كذلك بسابقيه تأثيرا كبيرا ، وأكثر فلاسفة العصر الحديث قد تأثروا بفلاسفة اليونان وفلاسفة الإسلام ، حتى إنه قد يكون من الصواب أن تقول مع « ول ديورانت » ، وهو فى معرض دفاعه عن « ابن سينا » .

بأن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الابداع فهم الذين لايتأثرون بعقول غيرهم(١) .

وإذا كان فيلسوفنا قد تأثر ببعض أفكار سابقة كانت تحمل طابع هذا الفيلسوف أو ذاك ، فإن الأثر الأكبر والأعمق - دون شك - كان للقرآن الكريم ، فهو المنبع الذى انتهل منه فلاسفة الاسلام رحيق الحكمة العالية .

ومن ثم كان إيمانهم بهذه الحكمة القرآنية أبرز وأكمل من تتلمذهم على فلاسفة الأغريق أو غيرهم .

فقد رأيناهم يعملون دائما على كبح جماح من اطلعوا على فكرهم إذ رأوهم ينحرفون عن الفكر السليم ، بينماهم يقفون من القرآن الكريم موقف الاجلال والاحترام والاكبار ويبذلون جهدهم فى تقديم المعونة إلى العقل تجاه المتشابهات من آياته آخذين بأمر القرآن فى النظر فى الملك والملكوت والتأمل فى عالمى الغيب والشهادة(٢) .

---

(١) راجع ص ٢٦ ، د / عاطف العراقى : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا دار المعارف بمصر .

(٢) راجع ص ٧ - ٨ ، د / محمد غلاب : المعرفة عندى مفكرى المسلمين : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

هذا وبعد أن نبحث فى أراء ابن سينا فى مجال النفس البشرية سوف نترك الحكم - للقارىء الكريم - على فكر ابن سينا ، وما إذا كان متبعا لأفكار السابقين ، أو كان مبدعا ومشاركا فى توجيه الفكر الاسلامى والإنسانى نحو طريق جديد ، تدفعه معرفته الواسعة . تلك المعرفة التى لم تكن فى يوم من الأيام حرفة احترفها لنفسه بل هواية استهواها فأحبها وأحبته وعشقها فعشقته وبذل فى سبيلها جهد عقله وقلبه وهو بعد لم يتجاوز العاشرة من عمره .

أجل . . لم تكن معرفته تلك معرفة احترفها - فويل للفلسفة إذا استحالت إلى عملية احتراف ، فإن فى ذلك موتها وزوال معالمها ، لأن الفلسفة كالفن ، كل ما فيها جديد رغم قــدم أدواتها التى يصنعها الفيلسوف . . والجدة فيها هو كونها تعبيرا عن موقف لايشبه المواقف السابقة ، حتى فى الاقتباس والتأثير والتأثر ، فهى جديدة لأن عملية التركيب التى يمثلها الفيلسوف أو الفنان هى الأصل أو التأصيل الذى نقصده ، سواء كان فى هذا الموقف ما هو تقليدى مقتبس أو مبتكر جديد فهو فلسفة شكلا ومضمونا طالما يحمل روح الفيلسوف وطابعه خاصة عند العود إلى النبع الذى صدر عنه فى ظل حضارات إنسانية متعددة .

إن مجتمعنا لم يكن - فى يوم من الأيام - مغلقا تقف حواليه السدود والقلاع ، بل فتح الباب العظيم على مصراعيه ، ودخل كل فكر إلى مدنيتنا الكبرى حيث تناولت هذا الفكر عقول متفتحة ، وفكر نافذ ناقد ، فأخذ منه ما يتناسب مع أسس بنائنا العظيم .

هذا والله أسأل أن يكون - هذا البحث - دافعا لعشاق المعرفة

وطلاب الحقيقة – نحو قراءات أوسع ومطالعات أعمق وأشمل كى يصلوا حاضرهم بماضيهم المشرف ، ليأخذوا منهما منطلقا لاعادة مجدهم العظيم

كما أرجو أن يوفقنى الله جلا جلاله لخدمة ديننا وأوطاننا والإنسانية جمعاء .

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا)

هـذا وبالله التوفيق ؟

دكتور
محمد رشاد عبد العزيز محمود

الفصل الاول

القرآن والمعتقدات السائدة :

لقد تحدث القرآن الكريم طويلا عن المعتقدات السائدة فى الجزيرة العربية . وذلك لأنها أنماط من معتقدات منتشرة فى أرجاء العالم أجمع .

ولقد نزل القرآن الكريم بعد فترة من نزول اليهودية والنصرانية. فترة أختلط فيها الحق بالباطل والأصيل بالزائف ودخل - على مر الزمن - فيما أوحاه الله من قبل من الدين الصحيح ما ليس منه ، وبسبب هذا ابتعد العالم قليلا أو كثيراً عن العقيدة الحقة وكانت الجزيرة العربية - البيئة التى نزل فيها القرآن - من أشد البيئات بعداً عن الحق وغلوا فى الباطل وتمسكا بالأوهام والخرافات ، فجمهرة العرب كانوا مشركين عبدة أوثان وأصنام منهم ، من انكر الخالق والبعث وهؤلاء هم الذين يسميهم الشهرستانى « معطلة العرب » (١) إذ لم تهدهم عقولهم إلى الاقرار بالخالق والدار الأخرى فكأنهم عطلوها ولم ينتفعوا بها .

ومنهم أخرون انكروا البعث مع اعترافهم بالخالق وابتداء الخلق والإبداع (٢) إذ حسبوه محالا بعد أن ينعدم الجسم ويتحلل ويصير ذرات هنا وهناك ولذلك كثيرا ما كانوا يرددون قول أحدهم :

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو

وينشدون قول بعضهم فى رثاء قتلى بدر من المشركين :

---

(١) انظر ص ٢٤٤ ج ٢ الشهرستانى الملل والنحل تخريج بدران : مكتبة الانجلو المصرية - طبعة ثانية .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٨٤٥ .

قليلة يصوغون الحياة الفكرية وغير الفكرية طبقا لقواعده ، ويغيرون الراسخات من العادات والتقاليد في نفوسهم ويرسمون لأنفسهم ولغيرهم - في ضوئه - طريقا جديدا لم يألفوه من قبل(١) .

ورأى القرآنيون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه أنه إذا كان الكتاب العزيز قد أعلن أنه قد أتى للناس جميعا . فلم يخاطب العرب الضالين وحدهم . كما خاطب العهد القديم اليهود من قبل ، أو كما خاطب العهد الجديد : « خراف بني إسرائيل الضالة » إذا كان القرآن الكريم لم يفعل هذا بل خاطب البشرية قاطبة (إن هو إلا ذكر للعالمين)(٢) .

فهو لابد أن يرسم للناس قواعد الفكر وأصول النظر إلى جانب قواعد الحياة العملية « الشريعة أو الفقه » وأن يصور لهم الألوهية في صورتها النهائية (الميتافيزيقا) وأن يعرفهم حقائق الطبيعة وقوانينها (الفيزيقا) وأن يضع قواعد السلوك الإنساني (الأخلاق) وألا يترك جانبا من جوانب الفكر والعمل ، أو الدين والشريعة إلا وأن يملأ الفجوة وأن يضع الصورة الكاملة .

لم يكن القرآن الكريم لدى أتباع النبي صلى الله عليه وسلم - كتاب مواعظ أخلاقية فقط ، أو تاريخا أنزل للعبرة عن قرون ماضية وأمم سابقة وعهود خلت . إنما هو كتاب « ميتافيزيقي » وفيزيقي وأخلاقي(٣) .

---

(١) ص ٣١ ج ١ : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام طبعة سابعة سنة ١٩٧٧ دار المعارف د / سامي النشار .

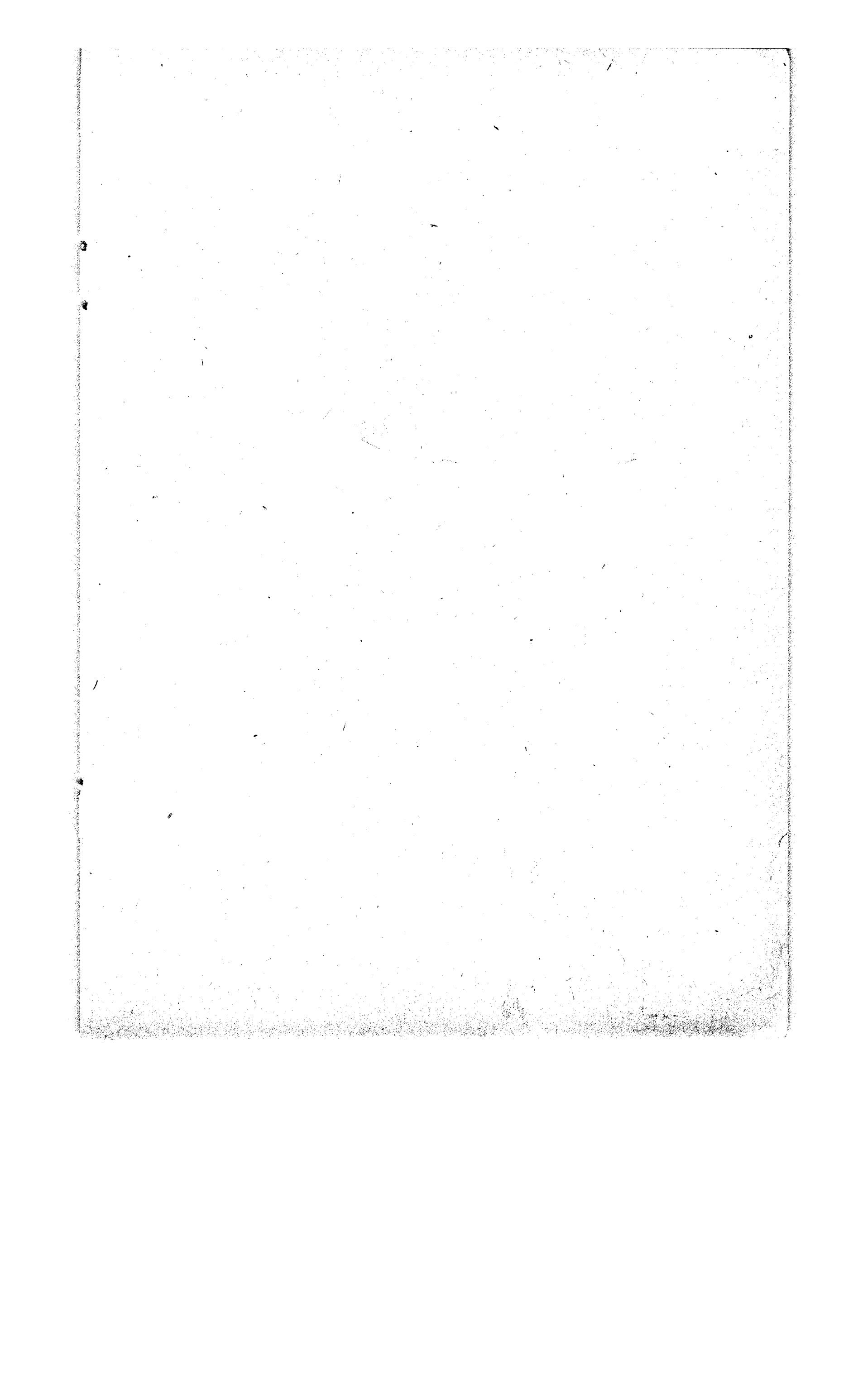
(٢) القلم : ٥٢ .

(٣) ص ٣٢ ج ١ د / النشار المصدر السابق .

وعملى وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله ، فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه .

وكان لابد لهؤلاء المؤمنين به أن يلتمسوا فيه أصول تفكيرهم ، وأن يطمئنوا إلى أحكامه الكلية وأن يجتهدوا ما شاء لهم الاجتهاد فى محيطه الواسع وفى دائرته العريضة ..

وكان لابد أن يقفوا على المعتقدات الفاسدة والنحل المنحرفة والديانات الباطلة التى تحدث القرآن عنها والتى بين زيفها وأوضح باطلها وفند الحجج التى ترتكز عليها وتستند إليها .



أثر القرآن فى حياة العرب العقلية

تمهيد :

كان ظهور الإسلام أهم حدث تاريخى ودينى وفكرى عرفته الجزيرة العربية بل من أهم الأحداث التى عرفها العالم كله على مدار تاريخه الإنسانى الطويل .

وليس الإسلام دينا فحسب ، بل هو دين وحضارة ، نظام وسلوك ، شريعة وعقيدة ، فكر وعمل .

فكل ما ظهر فى العالم الإسلامى من آراء ومذاهب يحمل طابع الإسلام . ومن ثم فلا يمكن فهم الفلسفة الإسلامية إلا بعد معرفة الإسلام ، لأنها تأثرت به إلى أبعد حد ممكن .

وكان القرآن الكريم - كتاب الإسلام الأعظم - هو الموجه للحياة الفكرية الإسلامية فى غاياتها وأهدافها .

فلقد كان نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، اعجب حدث فى دنيا الناس .

فلأول مرة - من بين الكتب السماوية الأخرة - وعلى حد تعبير الدكتور النشار - يظهر على الأرض كتاب « ذو كلمات وحروف إلهية ، لم يكتب سطرا من سطوره « بشر » ، ولم يخط حرفا من حروفه إنسان ، وأعلن « الكتاب الإلهى » إعلانا لا محيص عنه : إنه آخر وحى من السماء ، وأن رسالة السماء اكتملت به اكتمالها الأخير ، وإن الدائرة الإلهية التى هبطت منها الألواح والصحف والكتب الإلهية الأخرى قد أقفلت نهائيا وآمن أبناء اسماعيل بهذا الكتاب ، وانطلقوا فى سنوات

فماذا بالقليب ـ قليب بدر ـ من الشيزى تكلل بالسنام
يخبرنا الرسول : بأنا سنحيا وكيف حياة أصداء وهام(١)

إن عقولهم لا تستطيع أن تصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ـ وهو صادق لا ينطق عن الهوى ـ من أننا سنحيا حياة أخرى بعد أن يكون قد نال من العدم وطوانا الفناء ولفنا الموت بأوديته السوداء. فكيف يحيا الإنسان ـ عندهم ـ والأمر كذلك طالما صار جسدها مدا لا حياة فيه ولا روح . ولا نبض له ولا حركة ؟

ولقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تشهد بإنكار معظم عرب الجاهلية للبعث مثل قوله تعالى :

(وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين)(٢) وقوله جل جلاله :

(وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن الناس لا يعلمون)(٣) ومثل قوله سبحانه وتعالى :

(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا)(٤) .

وليس من هدفنا أن نسترسل في بيان الملل والنحل والعقائد المتعددة والمنحرفة التي غمرت الجزيرة العربية وتربعت على عرش قلوب أهلها واستولت على عقولهم ، وسارت حياتهم في محورها فقد كفانا القرآن

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٦ ، وانظر ص ١١٢ ـ تمهيد لمصطفى عبد الرازق .

(٢) سورة الأنعام : ٢٩ .

(٣) سورة النحل : ٣٨ .

(٤) سورة الإسراء : ٤٩ .

الكريم ذلك فأحصى ـ فى آية واحدة ـ كثيرا منها فذكر دين اليهود والصابئة والنصارى والمجوس ثم المشركين .

يقول تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد)(١) .

موقف القرآن من العقائد الباطلة :

ولقد كان هدف القرآن من ذكر هذه الأديان هو تفنيد حججها وتوضيح باطلها أمام هؤلاء الذين ساروا تحت رايتها زمنا طويلا كى تنقشع الغشاوة عن أعينهم فيتبين لهم الحق ويدخلوا فى دين الله أفواجا .

ومن هنا فإن القرآن الكريم كان يعرض بكل دقة وأمانة حجج هؤلاء المخالفين والمنحرفين ثم يتبعها بالرد الحاسم القائم على سلامة الفطرة وقوة البرهان ، انظر إليه وهو يحكى عن هؤلاء الذين زعموا فوصفوا الملائكة بالأنوثة ، ثم يرد عليهم ردا يتحدى كل عقل مكابر بحيث لا يسعه إلا التسليم بوهن قول هؤلاء المنحرفين وجدارته بالشك والارتياب .

يقول القرآن عنهم : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون)(٢) .

فتأمل تعقيب القرآن على هذا القول بهذا الاستفهام المسكت المفحم ،

---

(١) سورة الحج : ١٧ .
(٢) سورة الزخرف : ١٩ .

ولاحظ أنه يمكن التعبير عن ذلك عليا بأن القرآن يوحى هنا بأن فكرة الأنوثة ـ منسوبة إلى الملائكة ـ لابد وأن تكون وليدة مشاهدة وملاحظة إذا أريد لها أن تكون فكرة سليمة أي أن الملاحظة والمشاهدة وسيلتان من وسائل العلم والمعرفة الصحيحة .

وهذا هو بالضبط ما تعنيه روح المنهج التجريبي الحديث (٢) .

فهل شاهد المنحرفون خلف الملائكة حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الذي لا برهان عليه ولا دليل يدعمه ؟

وانظر إلى القرآن وهو يرد على هؤلاء الذين ادعوا أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب .

فيقول جل جلاله : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن هذه الممترين) (٢) .

فى هذا دليل قوى يبطل دعواهم ولم يذكر فيه سوى مقدمة واحدة وهى إثبات مماثلة آدم لعيسى وطوى ماعداها فإذا كان آدم ليس إبنا لله باعترافكم فكذلك عيسى ليس إبنا لله كذلك .

إهتمام القرآن بالعقل :

وهكذا يفند القرآن الكريم آراء المذاهب والملل والأديان المخالفة للإسلام وهو فى الوقت نفسه يوجه أتباعه توجيها قويا إلى أعمال العقل

---

(١) ص ٢٥ - ٢٦ د / محمد كمال جعفر فى الفلسفة الاسلامية ـ مكتبة دار العلوم سنة ١٩٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ٥٩ ـ ٦٠ .

والفكر والبحث عن الحقيقة ومعرفة براهينها القاطعة التى تتمشى مع العقل السليم ولا تتصام مع الفطرة الطاهرة وتوجيه النقد البناء وموازنة الحجة بروية ودقة ورفض سلطان الغير ورفض الآراء التى لاتساندها الأدلة القوية والتمييز بين ماهو يقينى وما هو مجرد فرض واحتمال«١» .

ومن هنا كان أمر القرآن الكريم لأهل الايمان باتباع حجة العقل فقد ذكر الباقلانى بأن الله قد أمرنا باستخدام القياس والحكم بالنظائر والأمثال .

فقال تعالى : (فاعتبروا يا أولى الأبصار)«٢» ، وقال : (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)«٣» ، وقال تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون)«٤» .

وغير ذلك من الآيات التى تأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورد الشىء إلى مثله أو الحكم له بحسب نظيره وهذا هو الحكم المعقول والتقاضى إلى أدلة العقول .

ويرى الباقلانى أن أول مافرض الله عز وجل على جميع العباد النظر فى آياته والاعتبار بمقدوراته والاستدلال عليه بأثار قدرته وشواهد ربوبيته . لأنه سبحانه غير معلوم بمشاهدة الحواس وإنما يعلم وجوده

---

(١) د / سامى نصر نماذج من الحكمة الدينية عند المسلمين ص ٤١ مكتبة الحرية الحديثة سنة ١٩٨١ م .

(٢) سورة الحشر الاية ٣ .

(٣) سورة النساء الاية ٣ .

(٤) سورة الذاريات الاية ٢١ .

وكونه على ما تقضيه أفعاله بالأدلة القاهرة والبراهين الباهرة «١» .

وهذا ما يراه أيضا الإمام محمد عبده حيث ذهب إلى أن النظر العقلى هو الأصل الذى بنى عليه الاسلام وأن العقل هو وسيلة الايمان الصحيح وأن منهج القرآن فى إثبات الايمان هو العقل والفكر وإقامة البرهان فهو كما يقول الإمام :

(لا يدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بصرك بأطرار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية)«٢»

ومن هنا فإننا ندرك السر فى أن القرآن الكريم كان يرد بكثرة على أولئك الذين يطالبون بمعجزات خارقة للطبيعة كأن تتنزل عليهم الملائكة أو يهبط إليهم كتاب من السماء فيلمسوه بأيديهم وما إلى ذلك .

فكلما أرادوا علامات خارقة للطبيعة كان القرآن يلفت أنظارهم إلى الطبيعة ومافيها من أتقان وإبداع وينبههم إلى أنهم إن لم يدركوا الله فى آثار الطبيعة الظاهرة فكيف يتسنى لهم إدراكه جل جلاله فى الآثار الخفية الشاذة .

إن القرآن يحول أنظار الإنسان من البحث فى الأمور الخارقة للطبيعة إلى الأمور الطبيعية التى تقود إلى فهم الحياة وتوصل إلى معرفة الله .

فالقرآن بذلك يدفع الإنسان دفعا إلى الانتقال من مرحله الإيمان

---

(١) انظر ص ٢٠ — ٢٢ الباقلانى : الانصاف : تحقيق زاهد الكوثرى الخانجى سنة ١٣٨٢ م .

(٢) ص ٤٧ — ٤٨ الاسلام والنصرانية : محمد عبده .

عن طريق المشاهد الماثلة أمام حواسه إلى طريق الإيمان القائم على التفكير والعلم والبرهان ويلفت الأنظار إلى الواقع المحسوس وإلى أن المعرفة تبدأ من هذا المحسوس، وقدرة العقل على تحصيل وذلك المحسوس واستيعابه هو الذي ييسر له الانتقال إلى غير المحسوس .

فمعرفة الله جل جلاله تكون عن طريق معرفة آثاره الظاهرة فى الطبيعة والتأمل فيها ومعرفة ما فى العالم الخارجى من نظام دقيق واتساق مذهل يدل على مدبر حكيم عليم(١) .

(فانظرا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء)(٢) .

ولذلك جاء حديث القرآن عن الحقائق على نحو يثير البحث ويدفع إلى الفكر والتدبر فهو أحيانا يتكلم على سبيل الحقيقة وأحيانا على سبيل المجاز ، وهو أحيانا يتكلم عن الشىء فى ذاته وأحيانا يتكلم عنه من حيث علاقته بغيره ، وأحيانا يشير إلى العلة الأولى تارة وإلى العلل القريبة تارة أخرى(٣) .

ويحذر القرآن الكريم من إصدار الأحكام فى أمور لا علم للانسان بها حتى لا يقع فى الخطأ والتناقض فيقول : (ولا تقف ما ليس لك به علم)(٤) .

---

(١) انظر ص ٥٠ د . على المغربى ـ الفرق الكلامية الاسلامية طبعه أولى سنه ١٩٨٦ مكتبه وهبه .
(٢) سورة الروم : ٥٠ .
(٣) ص ٢ : د . أبو ريدة : نصوص فلسفية عربية : لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٥٥ .
(٤) الاسراء : ٣٦ .

وينبه القرآن إلى ضرورة التدقيق فى رواية الحقائق وفى ذلك يقول : (يا أيها الذين آمنوا إذ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)«١» .

وبذلك وضع أمامنا أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخى وتتمثل فى أن أخلاق الراوى تعد عاملا هاما فى الحكم على روايته وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وتطبيقها على رواة الأحاديث النبوية وقد كان تطبيق هذا النهج النقدى على رواة الأحاديث النبوية هو الذى تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخى«٢» .

وقد ارتفع القرآن بالعقل وسجل أن إهماله فى الدنيا سيكون سببا فى عذاب الآخرة ، فقال حكاية لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق والعمل به (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير)«٣» .

وكان من مقتضيات اهتمام القرآن بالعقل أنه حذر اتباع الظن وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون)«٤» .

ومن هنا كثرت الآيات القرآنية الواردة فى ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف دون نظر واستدلال : هؤلاء الذين ورثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم لا لشىء سوى أنهم آباؤهم وأجدادهم

---

(١) الحجرات : ٦ :

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام لاقبال ص ١٦٠ نقلا عن دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى د . محمود زقزوق مكتبة وهبه .

(٣) سورة الملك : ١٠ .

(٤) سورة الأنعام : ١٤٨ .

وكأنهم يرون أن السبق الزمنى يخلع على خطة السابقين وآرائهم فى المعتقدات وافهامهم فى النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان فالتزموها وتقيدوا بها وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان خاصة البحث والتفكير والنظر .

وفى هذا الشأن يقول القرآن (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)(١) (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)(٢) .

وإذا كان التمسك بآراء السابقين والجمود عليها لمجرد أنهم متقدمون مصادما لقانون التطور الفكرى فهو فى الوقت نفسه سلب لميزة الإنسان فى التمييز بين الحق والباطل والملائم وغير الملائم فيفعل ما يفعل دون عقيدة ويترك ما يترك أيضا دون عقيدة وفى هذا جناية على الفطرة البشرية وسلب لمزية الفعل التى امتاز بها الإنسان واهدار لحجة الله على عبادة وتمسك بمالا وزن له عند الله جل جلاله(٣) .

إن المتدبر فى آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى التفكير والنظر يدرك - بكل صدق واطمئنان - عناية القرآن بتربية الإنسان من الوجهة العقلية فى الدرجة الأولى ولكى يأخذ القرآن بأيدى المسلمين إلى هذا الهدف النبيل وتلك الغاية السامية ويدفعهم دفعا إلى استعمال عقولهم للوصول إلى يقين مبنى على أصدق الأدله وأنصع البراهين وأدق الحجج .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٠ .

(٢) سورة المائدة : ١٠٤

(٣) انظر ص ١٩٣ وما بعدها بتصرف : من هدى القرآن ، للشيخ شلتوت دار الكتاب العربى للطباعة والنشر

أقول من أجل ذلك كله فإن القرآن يقص علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه والنقاش العقلي الذي دار بينه وبينهم حول « الألوهية وما اشتمل عليه هذا النقاش من أدلة عقلية في صورة متدرجة في تسلسل منطقي رائع تحمل العقل على محاكاتها للوصول إلى نفس نتائجها وهو الوصول إلى اليقين الذي تشير إليه الآية الكريمة »(١).

وأفساح للجهد الإنساني يبذل في مباشرة الطاقات الإنسانية لوظائفها وفي مقدمتها التفكير الحر السليم الذي لا يبدو ضحية للأفكار السابقة أو التقاليد البالية.

لقد عمرت قصة إبراهيم بالعناصر الفكرية والأدلة العقلية المتبادلة بين إبراهيم وقومه وفيها تظهر نصاعة حجة إبراهيم ومطابقتها لقواعد المنطق الدقيق، ولن نقف طويلا عند الأسس الفكرية التي ترشدنا إليها هذه القصة وإنما يكفي أن نشير إلى أن قصة إهتداء إبراهيم إلى الله تعالى يعرضها القرآن في صور متدرجة منطقية تحمل العقل على محاولة محاكاتها للوصول إلى نفس نتائجها يقول الحق جل جلاله:

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين)(٢).

هذه هي المقدمة التي تشرح أن هذه السياحة العقلية إنما قصد بها الوصول إلى اليقين العقلي والقلبي. ثم ابتدأت القصة بذكر ما يخطر ببال الإنسان عند التأمل في الظواهر الكونية وهو اتخاذ أحداها ربا.

---

(١) ص ١٤ دور الاسلام في الاسلام في تطور الفكر الفلسفي د. محمود زقزوق مكتبة وهبة

(٢) سورة الأنعام : ٧٥

وقد بدأ إبراهيم بكوكب لعله دون القمر ثم بالقمر وما به من جمال وما يضفيه على الكون من أنس وبهجة ، لكن ها هو القمر يغيب ويتلاشى جماله ويذهب بهاؤه والشأن في الآله ألا يغيب ، عند ذلك يهجره إبراهيم ويتخلى عنه إلى كوكب أعلى وأقوى وأكثر مساساً بالضرورة الحيوية للكائنات فلجأ إلى الشمس واتخذها - على سبيل الافتراض - رباً وذكر أنها أولى بذلك لأنها أكبر من القمر وهذا تعليل عقلي للاختيار : فلما صدق عليها ما صدق على القمر من تخلف واختفاء ، انتقل إبراهيم إلى الإله الحق الذي عرض أهم صفاته ومبررات عبادته وأعقب ذلك بالنداء الحار لهذا الرب وأعلان الأفضال التي لهذا الإله على الإنسان(١) وتعالوا نقرأ معا هذه الآيات الكريمة لنقف على عظمة النص القرآني وهو يعرض على عقول الدنيا قاطبة أن تصل إلى هذا اليقين الصادق عن طريق الفكر الهادف البناء : يقول جل جلاله :

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين (٢) .

---

(١) ص ٢٨ - ٢٩ د. كمال جعفر في الفلسفة الاسلامية ، مكتبة دار العلوم سنة ١٩٧٦ م

(٢) سورة الأنعام ٧٥ - ٧٩

القــرآن والحقائق الفلسفية :

هذا ولم يكتف القرآن بحث المسلمين على الدرس والبحث والفكر والنظر والتمحيص والتدقيق وإنما وضع أمام العقل حقائق وبين له المجالات التي يحق له أن يغشاها والتي يجب أن يتوقف أمام عتباتها بل وينبغي أن يبتعد عن رحابها ولم يكن هذا الموقف من القرآن يهدف إلى الحجر على العقل أو لتضييق دائرته وإنما كان من أجل المحافظة على الطاقات الفكرية من تبديدها وهي تحاول استكناه حقيقة الذات المقدسة .

لقد أعلن القرآن الكريم بأن الله واحد وأنه جل جلاله هو الفاعل وهو الرازق وإليه المرجع والمآب وبهذا الإعلان الحاسم قضى على قضى التفكير اليوناني وغير اليوناني وكل تفكير تناول الذات المقدسة بما لا يقبله عقل سليم أو فكر مستقيم .

كما أعلن القرآن فكرة الخلق وبين أن الله خالق وأنه خلق من لا شيء وأنه ـ جل جلاله ـ أوجد العالم من العدم وبهذا أنكر فكرة قدم المادة .

كما أعلن بدء الزمان ونهايته وبهذا أنكر سرمدية المادة وعدم فنائها .

وإذا كان القرآن ينكر قدم المادة ويعلن حدوثها وحدوث العالم ويبين أن الإنسان سيد هذا الكون إذا سار على منهج الله الذي ارتضاه لعمارة الأرض وعبادة الخالق جل جلاله ، فإن القرآن بكل هذا يجعل الإنسان مسئولا عن كل فعل من أفعاله .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)(١) .

ولكي ترسخ هذه المسئولية وما يترتب عليها من نتائج فى أعماق الإنسان فإن القرآن تحدث حديثا طويلا عن حتمية البعث والنشور وعن الإيمان بالغيب هذا الذى يمثل ـ فى نظرنا ـ انقلابا خطيرا فى التصور الفيزيقى والميتافيزيقى والمعرفى للانسان ، فالإيمان بالغيب إيمان باللا محسوس واعتقاد بأن الوجود ثنائى التكوين وأن هذه الثنائية أمر لامحيد عنه فى تكوين الوجود .

ومن ثم فإن التصورات المادية قاصرة وحدها عن تفسير الكون كله ، ولابد من البحث عن تصور أكثر شمولا واتساعا ، ثم إن الإيمان بالغيب يقتضى من المؤمن وسيلة معرفية أرقى من وسيلة الحس وحدها وأسمى منها قدرة وأبعد منها طاقة فوسيلة الحس مقبوله فى دائرتهاوحدها وإذا تجاوزنا هذه الدائرة فلا مناص من البحث عن وسائل أخرى تلائم ذلك التجاوز وتناسبه(٢) .

وإذا كان القرآن قد أكد مسئولية الإنسان عن أعماله وما يترتب عليها من تقدم للحياة أو تخلف وجمود بها ـ فإنه فى الوقت نفسه قد

---

(١) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨

(٢) انظر ص ١٩ د . محمد عبد الفضيل ـ جوانب من التراث الثقافى الاسلامى طبعه أولى سنة ١٩٨٤ دار الطباعة المحمدية (بتصرف).

وضع فلسفة للإنسان تتعلق به فى مختلف حالاته وأوضاعه باعتباره فرداً أو عضوا فى أسرة أو عضوا فى مجتمع صغير أو كبير أو عضوا فى أمة أو عضوا فى جماعة الإنسانية كلها.

إن القرآن لم يهمل ناحية من هـــذه النواحى فكان بذلك منبعا لأصول الفلسفة الإنسانية والاجتماعية عـلى تعدد فروعها وتنوعها وكان بذلك واضعا للأسس العامة التى يقوم عليها المجتمع السليم الذى دعا إليه .

لقد رفع القرآن من شأن الإنسان باعتباره فرداً(١) وذلك بما أبطل من عبادة غير الله جل جلاله فحرره من الخضوع لآلهة مزيفة لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شىء .

وقضى القرآن على سلطان الأحبار والرهبان والوسطاء بين الله وعبده ، ولم يفرض عـــلى الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولى أو متسلط أو صاحب قداسة مطاع ، فلا ترجمان بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل والغفران ويقضى بالحرمان أو بالنجاة .

فالخطاب فى القرآن إنما يتجه إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهانها وسدنتها (٢) .

---

(١) ص ٢٤ د . محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة طبعة رابعة دار المعارف .

(٢) ص ٢٥٥ د . محمد عبد الرحمن مرحبا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ، منشورات عويدات ـ بيروت .

وكل هذا من شأنه أن ينمى فى الفرد الاحساس بأن الله وحده هو الذى يغفر الذنوب وهو القريب لمن دعاه والتجأ إليه .

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون (١) .

وهكذا قرر القرآن الكريم أنه ما من شفيع ولا وسيط بين الإنسان وخالقه وأن أحـــدا غيره لا يملك له ضراً ولا نفعا وأنه لا وسيلة له القربى من الله إلا للعمل الصالح وحده ، فبعمل المؤمن وتقواه تقاس منزلته عند خالقه وفى هذا يقول القرآن (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(٢) .

وبهذا نرى أن القرآن الكريم قد استحدث مقياسا جديداً عادلا يعرف به الإنسان قيمته ومنزلته(٣) .

لقد كانت تعاليم القرآن التى ذكرنا صورا منها تتردد فى كيان كل مسلم وتعلن إليه حقائق الكون وحقائق الإنسان وحقيقة الألوهية ، وقد بين القرآن الحق فى مشاكل الطبيعة وما بعد الطبيعة .

وحقيقة النشأة الأولى كما كانت تعاليم القرآن لأعمال الإنسان عقله ونظره فى كل ما حوله جلية واضحة وحتى يصل العقل إلى أسمى درجات

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

(٣) ص ٢٥ : القرآن والفلسفة د . محمد يوسف موسى .

التفكير ويتجه بكل طاقاته للوصول إلى الحقائق التي أودعها الله في الكون .

كانت دعوة القرآن إلى التزود بالعلم والأخذ بضروب المعارف وشتى الثقافات ولضمان وصول العلم السليم والمعرفة الحق للعقل - أعلن الحرب على الجهل في كل صورة لأنه أخطر الآفات التي تعوق الفكر وتهدد العقل وتبعده عن الطريق السليم والمنهج القويم .

ومن هنا عنى القرآن عناية كاملة بالارشاد إلى الوسائل التي تطهر المجتمع من الجهل : وحارب الجهل وتتبعه في كل وكر من أوكاره وفي كل لون من ألوانه .

حارب جهل الشرك بالتوحيد ، وبث في النفس والآفاق دلائله ولفت الإنسان إليها وحثه على النظر والتفكير فيها ليؤمن بان العظمة التي يخضع لها ليست لأحد سواه .

حارب جهالة التقليد - كما تقدم - وأنكر على الإنسان أن يسلم عقله لغيره وأن يقف في عقائده ومعارفه ووسائل الحياة عند ما خلقه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات .

حارب جهالة الأمية وأوصى بتعلم القراءة والكتابة والأخذ بأفانين الثقافة والمعارف ورفع من شأن التعلم وحسبنا في ذلك قوله تعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)(١) .

---

(١) سورة المجادلة : ١١

وحسبنا أيضا أن يكون أول نداء إلهى يفتتح به الله باسم «الربوبية» وصية إلى نبيه محمد ﷺ تلكم الآية الكريمة :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)(١) .

إنه : يامر بالقراءة والقراءة سلم المجد وطريق العلم والمعرفة ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم «الرب» مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق فيشعر الإنسان بعزة شانها ورفعة قدرها وأنها من الشئون العظمى ذات البال والخطر ثم يذكر خلقه وتكوينه فى هذا المقام ويردفه بنعمة العلم(٢) .

(الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وكما يطلب القرآن القراءة على الاطلاق دون تقييد بمقروء مخصوص يطلب العلم والنظر على الاطلاق دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(٣) .

ويرشدنا هذا الاطلاق إلى أن العلم فى القرآن ليس خاصا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام وإنما العلم فى نظرة هو كل أدراك يفيد الإنسان توفيقا والقيام بمهمته العظمى التى القيت على كاهله فقد خلق وجعل خليفة فى الأرض وهى عمارتها واستخراج كنوزها وإظهار أسرار الله فيها ولقد أدرك المسلمون الأوائل إيحاء القرآن فى كل

---

(١) سورة العلق : ١ — ٥

(٢) ص ١٩٨ — ١٩٩ : الشيخ شلتوت من هدي القرآن .

(٣) سورة الزمر آية ٩

ذلك فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته فى سعادة الأمم والأفراد .

فاتجهوا إلى القرآن الكريم يبحثون ويدرسون ويستنبطون ويفسرون : والحياة الإسلامية ليست سوى التفسير القرآنى .

فمن النظر فى قوانين القرآن العملية نشأ الفقه ، ومن النظر فيه ككتاب يضع الميتافيزيقا نشأ الكلام ومن النظر فيه ككتاب أخروى نشأ الزهد والتصوف والاخلاق ومن النظر فيه ككتاب للحكم نشأ علم السياسة ومن النظر فيه كلغة إلهية نشأت علوم اللغة وغيرها من العلوم : فى النطاق القرآنى وفيه نضجت وترعرعت وفيه تطورت وواجهت علوم الأمم تؤيدها أو تنكرها فى ضوئه(١) .

لقد شغل المسلمون بدراسة القرآن وتفهمه فإذا بألوان من العلوم والمعارف والثقافات تتوالد منه وتنبعث عنه ويتطاول البناء وينمو الغراس نموا سريعا متلاحقا ثم يكون الاستقصاء والاستيعاب وتوالد الفروع عن الأصول وتهيئة العقول للنهوض بالعلوم الفلسفية والنظرية الطبيعية والرياضية وما إلى ذلك من سائر العلوم العقلية يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعى :

ما من علم إلا وقد نظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له .

وقد أشار القرآن الكريم إلى نشأة العلوم العقلية والنقلية وإلى

---

(٢) ص ٢٢٧ ج ١ د . النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام .

تمحيصها وبلوغها غاياتها مع التنبؤ إلى ما ينالها من تجديد وما يلحقها من تنوع وتطور على مدى الأجيال في قوله تعالى :

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)(١)

ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما كان وما هو كائن وما سيكون منها منذ أوجد الله الخليقة إلى أن تقوم الساعة ما خرجت في جملتها وتفصيلها وفي جميع معانيها وأطوارها على نطاق قول القرآن الكريم (في الآفاق وفي أنفسكم) .

لذلك اندفع المسلمون - بفضل القرآن - إلى طلب العلوم من جميع مظانها والبحث عنها في كل مكان وقد بلغوا منها في مدة وجيزة ما لم يبلغه غيرهم في مدى قرون طويلة وعصور كثيرة فأصبحوا أصحاب الزعامة العلمية بين شعوب الأرض قاطبة .

ولذلك نراهم قد انتشروا في أرجاء الأرض كما ينتشر شعاع الشمس يبشرون برسالة الإسلام ويدعون الناس إلى السير في ظلال القرآن ويقيمون حدوده في حياتهم ويطمسون معالم الامبراطورات بما كان فيها من أبهة وعظمة خادعة وجبروت وطغيان قاتل .

وهكذا مضى حملة القرآن في فتح مادي وروحي لا يضارعه أي فتح في التاريخ البشري قاطبة على حد تعبير « روم لأندو »(٢) .

---

(١) سورة فصلت : ٥٢ .

(٢) في كتابه الإسلام والعرب ص ٣٥ ترجمة منير البعلبكي - بيروت سنه ١٩٦٢ م .

فلم يكن أولئك الذين أعادوا الحياة للدنيا بقطاع طرق أو قتلة كما يصورهم بعض المؤرخين الحاقدين .

فقد كان سلاحهم القلم والفكر والكتاب ، لا القهر والعنف والسيف وكانت فتوحاتهم فتوحات ثقافية روحية أدت إلى تكوين رقعة حضارية جديدة .

فقد أحسوا - بعمق وإيمان - أنهم حملة رسالة سماوية خالدة وأنهم لم يخرجوا لمجرد الفتح والغنيمة . إنهم لم يتوسعوا من أجل غاية التوسع ولا فتحوا البلاد من أجل السيطرة والاستعباد بل ، ليؤدوا واجبا دينيا كله حق وهداية ورحمة وعدل ورشاد ، من أجل إخراج العباد من عبادة القوى الطبيعية إلى عبادة الله الواحد القهار .

ومن هنا فإنهم أراقوا دماءهم في سبيل الوصول إلى هذه الغاية السامية والهدف المعظم وإذا كان فيهم من ابتعد عن السنن القويمة أوغلب على أغراضه اهداف غير إسلامية فإنما جريرته على نفسه لأن هذا ليس من مقاصد القرآن ولا من أهداف الإسلام«١» .

فقد كان هدف الإسلام أن يقضى - بتعاليم القرآن على كل المعوقات التى وضعت امام الإنسان فباعدت بينه وبين القيام بدوره فى عمارة الأرض وعبادة الخالق جل جلاله .

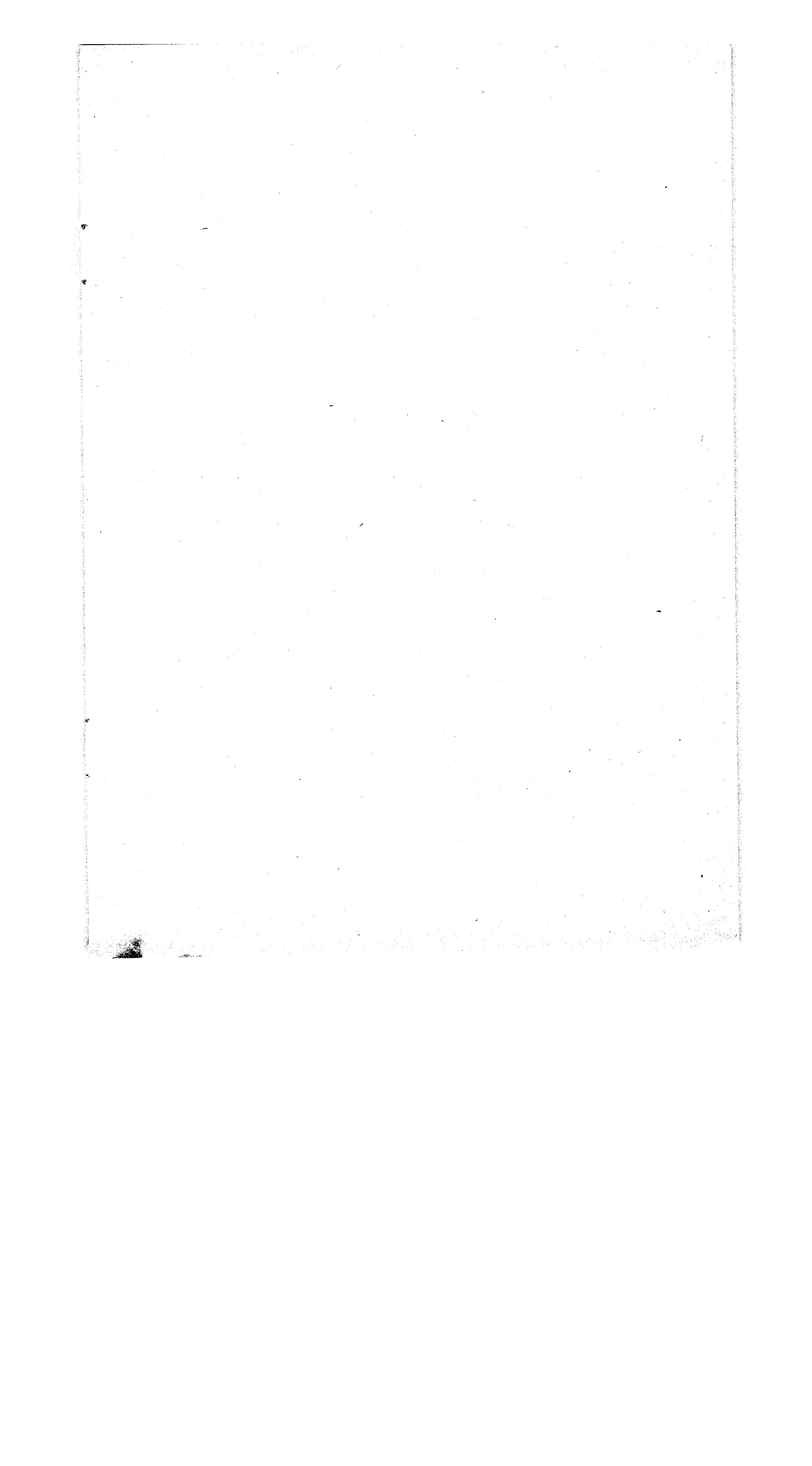
ولذلك سرعان ما نشأت علاقات طيبة وصلات وطيدة بين المسلمين

---

(١) ص ٢٥١ — ٢٥٢ من الفلسفة اليونانيـــة إلى الفلسفة الإسلامية دكتور عبدالرحمن مرحبى .

وبين الأمم والشعوب التى رفرفت أعلام الإسلام على ربوعها وتسربت أنوار القرآن إلى كثير من قلوب أفرادها .

وكان لهذا ثمرة طيبة بعيدة المدى فى حياة الإنسانية جمعاء فحدث انقلاب فكرى ولغوى واجتماعى وثقافى منقطع النظير فى تاريخ الحضارات الانسانية يفوق - بكثير - الانقلاب الذى أحدثته النهضة فى أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى .



الفصل الثانى

أثر اتصال المسلمين بغيرهم

لقد استقر المسلمون - بعد الفتح - فى البلاد التى أخذت آيات القرآن تتردد فى أرجائها ، ووجدوا أنفسهم وجها لوجه مع أمم وشعوب لم يكونوا من قبل شديدة الصلة بحياتها ولا بثقافاتها العقلية ، شعوب تختلف عنهم من حيث الدين واللغة وطريقة المعيشة ، ومن حيث النظم والعادات الفكرية والاجتماعية والتقاليد ، شعوب تختلف عنهم من حيث المعرفة والتاريخ والقدرات الفلسفية(١) .

ومن ثم لم يجد حملة القرآن مناصا من الوقوف على ماجادت به عقول هذه الشعوب من الفلسفات الكثيرة والثقافات المتعددة استجابة لدعوة القرآن الكريم الذى لم يمنعهم من البحث والتفكير الفلسفى بل إنه على العكس من ذلك يحض على النظر ويأمر بالتفكير والبحث عن حقائق الأشياء وفى حقائق الأشياء ، وفيه آيات كثيرة تدعو إلى اعمال العقل وامعان الذهن فى كل شىء يقع دائرة الإنسان وفكرة كما قلنا ولذا فقداندفع المسلمون - بفضل قرآنهم وأحاديث نبيهم - يقرأون كل مايقع فى أيديهم ويتجمع لديهم فى هذا الانفتاح الحضارى الكبير على مشرق الأرض ومغربها .

وبدأ العامل الثقافى يلعب دورة فى التلاحم الفكرى والعلمى مع تراث الشعوب الأخرى ورحبت الصفوة المفكرة بهذه الثقافية الجديدة

---

(١) انظر مقدمة : مالك الثقافية الاغريقية إلى العرب : أوليرى : ترجمة تمام حسان مكتبة الانجلو المصرية وانظر د. عبد الرحمن بدوى التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية دار النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ .

كما رحبت الدولة الرسمية لتكون أداة فعالة بعقلانيتها فى محاربة الحركات اللاعقلانية التى تشد المسلمين إلى ماقبل الاسلام .

وكان المفكرون هم أول فئة تستخدم هذه الثقافات الجديدة ، ولا سيما اليونانية فى دفاعها عن الإسلام ، وقيمه وعقائده وشريعته (١) .

وإننا نسجل للحق والتاريخ أن الثقافة الوافدة قد أفادت المسلمين فى معتركهم الفكرى مع هؤلاء الذى أرادوا تشويه صورة الإسلام الجلية . ولذا فقد أقبلوا عليها وهذا ما نقف عليه فى الصفحات التالية .

---

(١) انظر ص ١٦٤ د . زكى نجيب : تجديد الفكر العربى ، دار الشروق — بيروت — القاهرة سنة ١٩٧١ بتصرف .

أسلحة المسلمين فى المعترك الفكرى :

منذ أن انتهت حركة الفتح وشعر الناس جميعا بنسمات الحرية تهب من بوابات الدين الجديد ، سارع أعداء الاسلام بمختلف عناصرهم بنشر الأفكار الهدامة ونفث السموم وتوجيه معاول الهدم الفكرى لتشكيك المسلمين فى حقائق دينهم ولم يتركوا أصلا من أصول الاسلام إلا وقد وضعوه موضع النقد والتضليل .

ولا غرابة فى هذا فقد كانت هذه العناصر موتورة من الدين الجديد الذى ألغى أديانها ، ومن الحضارة الجديدة التى سلبتها مجدها وعزتها . لهذا تأليت جموعها وأخذت تحارب الاسلام بشتى الوسائل لتثأر لنفسها ودينها وتسترد نفوذها وسلطانها(١) .

فالزوكية والمانوية من الفرس وأنصارهم من زنادقة العرب ، بدءوا ينشرون دعوة التثنية ويهدمون فكرة التوحيد التى قام عليها الاسلام .

وكلنا يعلم خبر بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس الثنويين اللذين كانت لهم مجالس خاصة تذاع فيها الآراء المذوكية والمانوية(١) .

والسمنية وغيرهم من براهمة الهند أخذوا فى ذلك العهد نفسه ينادون بتناسخ الأرواح وينكرون النبوة والأنبياء ولا يرون حاجة البشر إليهم ، وملأ اليهود كتب الحديث والتفسير بالأسرائيليات وقالوا

---

(١) ص ٨٢ الفلسفة الاسلامية د . إبراهيم مدكور ح ١ ، دار المعارف

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ص ١٥٧ ج ١ .

بالرجعة وخلق القرآن كما قالوا بخلق التوراة من قبل(١) .

وأرسل آباء الكنيسة على المسلمين شواظا من أسئلتهم واعتراضاتهم المتعلقة بمشكلة الجبر والاختيار فزاودها تعقيدا وشغلوا الناس بما فوق مألوفهم وطاقتهم وذهبوا إلى أنكار أبدية عذاب النار فقال جهم بن صفوان معهم إن الجنة والنار تفنيان ويفنى أهلهما(٢) .

وأجترأ الدهرية على أن ينكروا البارى جل جلاله والمسؤولية وقالوا (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) .

وفوق ذلك كانت المجابهة التى لم يكن للإسلام منها مفر مع المسيحية فى دمشق وبغداد وما نجم عن هذه المجابهة من المشادات الكثيرة(٣) تلك التى كونت ذلك المعترك الفكرى الرهيب الذى استعمل فيه الجميع كل البراهين العقلية والأدلة المنطقية والقضايا الفلسفية .

ولقد اضطر الخلفاء العباسيون إلى التدخل فى المسائل الدينية وإلى حث العلماء على قراءة الثقافات الجديدة والتسلح بالأسلحة الفكرية التى يحارب بها الأعداء ووضع الكتب فى الرد على المجوس والدهرية وغيرهم من أعداء الدين الجديد .

ومن هنا فقد سارع العلماء والمفكرون فى الدفاع عن قيم الإسلام وعقائده والذود عن حياضه بطريق العقل واستعانوا فى ذلك بالثقافة

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٣٦٧ وانظر ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ الملل والنحل للشهرستانى .

(٢) ص ٨٣ ج ٤ الفصل لابن حزم - المكتبة التجارية - القاهرة سنة ١٣٣١ هـ .

(٣) ص ١١ : تاريخ الفلسفة الإسلامية د. ماجد فخرى وآخر

اليونانيه التى ترجمت واستعملوا المنطق اليونانى لضبط قوانين مناظراتهم وتحديد قواعد جدلهم(١) .

ولقد خرج الإسلام من هذا المعترك الفكرى وهو يحمل راية النصر تخفق بآيات الحق وتعلن للناس جميعا (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا زاهق)(٢) (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض)(٣) .

ولقد أحس المسلمون أن الثقافات الأجنبية المتعددة والمتنوعة التى وقفوا عليها بعد ترجمتها - كانت لهم عونا على أحراز هذا النصر العظيم ، فاتجهوا إليهـــا - بدافع الشوق وتوجيه قرآنهم وتشجيع رسولهم لدراستها بعمق وفهم كبير .

---

(١) ص ١٠٧ تاريخ الفلسفة العربية د . جميل صليبا ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت طبعة ثانية سنة ١٩٧٣

(٢) سورة الأنبياء : ١٨ .

(٣) سورة الرعد : ١٧ .

أثر التراث اليونانى فى فكر المسلمين :

عكف كثير من المسلمين على أفكار أهل البلاد التى فتحوها حيث أعجبوا بها وفتحوا لها عقولا واعية وآذانا مصغية ، ولم تعد ألسنتهم تدندن بالقرآن الكريم وحده ولم تعد أبصارهم تقع على أحاديث الرسول الكريم كما كانوا فى عهد الرسالة الأولى ولم يصبح شعارهم الاختصار على الموروث من علم النبى ﷺ ، فهو الذى يستحق أن يسمى علما وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعا وإما ان لا يكون علما وإن سمى به ، ولئن كان نافعا فلابد أن يكون من ميراث محمد ﷺ (١) .

لم يعد هذا شعارهم وإنما أقبل كثير منهم على التراث اليونانى حيث أعجبوا بالدقة التى كان عليها المنطق الأرسطى(٢) وغيره من العلوم الرياضية تلك التى تولدت عنها .

- كما يقول الإمام الغزالى - آفتان : أحداهما أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة ويحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم(٣) .

ومن هنا فقد خدع - بالفعل - من وثق بهذه الدقة التى تتسم بها الرياضيات ومن ثم فقد انسحبت إلى مجال الالهيات .

---

(١) انظر ابن تيمية مجموعة الرسائل الكبرى ص ٢٣٨ ج ١

(٢) وقف فريق من علماء المسلمين يحاربون المنطق والفكر اليونانى باعتبار أنهما - فى نظرهم - من العلوم الرديئة راجع طبقات الحنابلة لابن رجب وبحثنا مدخل للفلسفة الاسلامية

(٣) راجع ص ١٢ - ١٣ المنقذ من الضلال للغزالى طبع مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩٢٩ م

إن هؤلاء لم يتطرق إلى أذهانهم أول الأمر شك فى دقتها وبالتالى شك فى عصمتها فأقبلوا عليها آمنين خطأها أو ظانين أنها بعيدة عن الخطأ تناولوها على إنها شىء يجب الحرص عليه والدفاع عنه(١) ولذا تأثر بها كثير من المثقفين فانصرف فريق منهم إلى درسها والتأليف فيها مستوعبا فلسفة اليونان وشروحها وما اصطبغت به من ألوان مدرسة الاسكندرية والرومانية الشرقية ومزجها بما أوحى إليهم دينهم ومجتمعهم محاولين التوفيق بين ما أعجبوا به وما آمنوا به، بين الفلسفة والدين الإسلامى.

وإذا كان بعض المفكرين يرى أن المحاولة الفكرية التى قام بها بعض فلاسفة الإسلام من أجل التوفيق بين حقائق الدين الإسلامى وبين قضايا الفلسفة اليونانية التى وصلت إليهم وخاصة فى ثوبها الأرسطى — كانت محاولة تنم — رغم طرافتها — عن سذاجة كبيرة وجهل بطبيعة الفلسفة الاغريقية وعناصرها الوثنية العميقة وعدم استقامتها على نظام فكرى واحد، وأساس منهجى، كما يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة.

فالفلسفة الاغريقية نشأت فى وسط وثنى مشحون بالأساطير واستمدت جذورها من الوثنية ومن هذه الأساطير، ولم تخل من العناصر الوثنية والأسطورية قط. فكان من السذاجة والعبث محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامى القائم على أساس التوحيد

---

(١) ص ٢٢٢ د. محمد البهى : الجانب الإلهى من التفكير الفلسفى، دار الفكر : طبعة خامسة ١٩٧٢ م

المطلق العميق التجريد (١) .

وإذا كان البعض الآخر يرى أن تناقض الفكر الإغريقي في كثير من آرائه لبعض تعاليم الاسلام هو الذي وجه العقلية الاسلامية في وجهة أخرى غير وجهة البناء والإضافة ، وهي وجهة التوفيق أو النقد ويؤيدون رأيهم هذا بأن العقل الاسلامي في مجال الطبيعة والرياضية استطاع أن يكون عقلا بنائيا ومنهجيا أصيلا .

ولم يكن كذلك في مجال الميتافيزيقا والالهيات . لأن في مجال الطبيعة لم يجد الحرج الذي وجده في المجال الالهي وهو الحرج الناشيء عن القيمة الذاتية للتعاليم الاسلامية (٢) .

إذا كان هذا هو رأي بعض المفكرين ، فإن فلاسفة الاسلام لهم رأي يختلف تماما عن الرأيين السابقين ، حيث يرون أن الفلسفة حق وأن الدين حق والحق لايضاد الحق ولايصادمه وإنما يناصره ويآزره ويؤيده يقول ابن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال :

« الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة » (٣) .

ويقول الفارابي موضحا حاجة الناس لهداية الفلسفة ولزومها لسلامة الدين نفسه :

---

(١) انظر ص ٢١ خصائص التصوير الاسلامي ومقوماته : سيد قطب ، دار الشروق ، وانظر ص ١٠٨ : الفلسفة الاسلامية ، الدكتور عرفان عبد الحميد دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع ببغداد .

(٢) انظر ص ١٨ الفكر الاسلامي في تطوره للدكتور محمد البهي .

(٣) فصل المقال ص ٢٧ طبع مطبعة الفرق الاسلامية

« ولولا ما أنقذ الله أهل العقول والأذهان بهذين الحكيمين أفلاطون وأرسطو . ومن سلك سبيلهما ممن وضحوا أمر الابداع بحجج واضحة مقنعة ، وأنه إيجاد الشيء لا عن شيء وأن كل ما يتكون من شيء ما ، فإنه يفسد لا محالة إلى ذلك الشيء ، والعالم مبدع من غير شيء فمآله إلى غير شيء . . فما شاكل ذلك من الدلائل والحجج والبراهين التي توجد كتبهما مملوءة منها ، وخصوصا مالهما في الربوبية وفي مبادىء الطبيعة ـ لكان الناس في حيرة ولبس »(١) .

فالفلسفة الإغريقية في نظر ابن رشـــد متآخية مع الدين وليس بينهما تناقض ، وهي عند الفارابي طريق الرشاد وهداية الناس إلى الحق .

وإذا تجاوزنا وجهات النظر هذه ، فإننا نرى أن العلوم المترجمة عامة والعلوم الفلسفية خاصة آثارا بعيدة المدى في كل مجالات المجتمع ومختلف مناحي الحياة .

فمن المعروف أن موجات الفكر التي تحملها رياح الفلسفة هي التي تدفع المجتمعات نحو التقدم والحضارة وتوجه الجماهير أو كثيرا منهم نحـــو إعمال الفكر وأحكام النظر والاتجاه إلى الأبحاث العلمية العميقة ، ومحاربة الخرافات والجهالة والفساد والقضاء على كل ما يقف حجر عثرة أمام رقي الأمة وتقدم الحضارة ونهضة الشعوب .

وإذا القينا نظرة في التاريخ القديم والحديث لوجدنا أن التاريخ خير شاهد على تقول وأن الواقع يقرر ما نقول .

---

(١) انظر ص ٢٩ ـ ٣٠ ، الجمع بين رأى الحكيمين : مطبعة السعادة سنة ١٣٢١ هـ

لقد كانت الفلسفة اليونانية على صلة وثيقة بالمجتمع تؤثر فيه وتوجه دفته وتقوم تياراته السياسية والفكرية ؛ ففلسفة « سقراط » تقف فى عظمة وشموخ أمام مشيرى الفتنة من السوفطائيين الذين كانوا يتحكمون فى النظام السياسى الأثينى باستخدامهم الأساليب الاستثارة الخادعة والتمويه وضروب التضليل والنفاق .

وكثيرا ما كان سقراط يتحدث إلى الشباب ليصلح ما أفسده السوفطائيون من أمرهم ويبصرهم بالحق ليهىء لبلاد اليونان مستقبلا طيبا على أيديهم(١) .

وكانت فلسفة « أفلاطون » هى التى قامت تنادى بإعادة إصلاح المدن اليونانية سياسيا واجتماعيا ، وقد ساهمت مساهمة فعالة فى تهيئة الفرصة لاصلاح الحكم فى جزيرة صقلية .

فقد كانت فلسفته على وجه العموم ذات وجهة سياسية ، إذ أنها كانت تستهدف قيام عالم أفضل — كما — جاء فى كتاب الجمهورية — لتحقيق غاية الأفراد من فضيلة وسعادة فإن هذه هى غاية الحياة لا الاثراء وبسط السلطان كما يعتقد الكثيرون (٢) .

وكانت لفلسفة الفيلسوف الفرنسى الشهير : « ديكارت » أبلغ الأثر فى جميع النواحى العلمية والثقافية فى حياة فرنسا وأوربا فى القرن السابع عشر .

---

(١) راجع ص ٤٢ د / عوض الله حجازى : فى الفلسفة الاسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية — دار الطباعة المحمدية بالقاهرة طبعة ثانية .

(٢) انظر ص ٢٠ دروس فى تاريخ الفلسفة د . إبراهيم مدكور ويوسف كرم لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٣ .

وكانت فلسفة « بنتام » : وراء حركة الاقتصاديين الأحرار فى المجتمع الإنجليزى .

وكانت فلسفة : بيرس - وليم جيمس - جون ديوس - ذا أثر عميق فى حياة الشعب الأمريكى فى جميع نواحيه بحيث أن مفاهيم فلسفتهم أصبحت دستورا للسلوك فى المجتمع الأمريكى .

ونجد فى الشرق العربى الأفكار الفلسفية لجمال الدين الأفغانى تأخذ طريقها إلى الشعوب العربية والاسلامية فتكون سببا فى قيام ثورات تحررية وسياسية وإجتماعية ، كان لها آثار بعيدة المدى فى حياة هذه الشعوب .

إن هذا يوضح لنا مدى ارتباط الفكر الفلسفى ارتباطا وثيقاً بالمجتمع (١) .

فما من موقف إقتصادى أو إجتماعى أو سياسى أو غير ذلك إلا وله ما يربطه بنظرية فلسفية عميقة سواء أكان ذلك من الناحية الإيجابية أم من الناحية السلبية ، كما تمثل ذلك فى فتنة « خلق القرآن » التى حمل لواءها المعتزلة وكانت شرا ووبالا على الأمة الاسلامية ، ولاسيما بعد مساندة المأمون لهذا الفكر المنحرف ومحاولة بسطه على الناس بقوة السيف والقهر لا بقوة الحجة والاقناع (٢) .

وبعد .. فلقد كان تأثير القرآن الكريم على الأمة الإسلامية تأثيرا

---

(١) راجع ص ١٥ - ١٦ د . محمد على أبو ريان : الفلسفة ومباحثها طبعة ثالثة سنة ١٩٧٤ دار الجامعات المصرية بالاسكندرية (بتصرف) .

(٢) راجع ص ٧٨ المعتزلة لزهدى جاد الله و ص ٥٢ البير نصرى : أهم الطرق الاسلامية والسياسية .

عظيما ؛ فهو الذى دفعهم دفعا فى طريق العلم والمعرفة ، وهو الذى وجههم الوجهة السليمة فى تناول الثقافات المختلفة ، وهو الذى بين لهم كيف يعملون فكرهم فى كل ما يصل إليهم ، وكيف يستنبطون مما يقرءون ما يتناسب مع تعاليم دينهم ، وهو الذى تحدث عن الألوهية وبين فيها فصل الخطاب ، وتحدث عن التدبر فى مجالات الكون والبحث والنظر فى ملكوت النفس وعظمة الطبيعة .

فالقرآن الكريم كما يقول صاحب القرآن والفلسفة(١) : كان من أهم العوامل التى دفعت المسلمين إلى التفلسف ، فقد تعرض بكثير من آياته لأمهات المشاكل الفلسفية الالهية والطبيعية والانسانية ، هذه المشاكل التى كانت — وما تزال — تثير أفكار العلماء والفلاسفة وعقولهم .

وفى الحق كما يقول الدكتور غلاب(٢) .

إن كل من يلقى نظرة فاحصة على القرآن ويتأمل فى آياته الداعية إلى التدبر والتفكير فى شىء عظيم من العمق والحاضة على النظر العقلى ، بل التى ترمى من لم يتعمق فى أسرار الكون بالخلو من اللب تارة وبعدم البصر بالأمور تارة أخرى يتضح له أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغلغل الفلسفة فى البيئات العربية ، بل هو أول كتاب سماوى فرض التفكير على أتباعه فرضاً وأوجب عليهم التفكر فى أسرار الكون وخفايا الوجود ليصلوا من هذا التفكر إلى معرفة المبدع الأول والإيمان

---

(١) الدكتور محمد يوسف ص ٥ طبعة رابعة — دار المعارف

(٢) ص ١٩ — ٢٠ ينابيع الفكر الاسلامى وعوامل تطوره ، العدد الثالث والستون المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة سنة ١٩٦٦ م

بوحدانيته المطلقة وقدرته التى لا تحد ومخالفته جميع الموجودات . والتنزه عن الصدور والإنسال وإلى التيقن بخلود النفس . وبالعودة إلى حياة أخرى تتحقق فيها عدالة الخالق بمجازاة الخير والشر بما يستحقانه على عمليهما .

وهل الفلسفة الحقة شيء غير هذا ؟

وهل هناك فرق بين دعوة الفلسفة إلى التأمل فى نشأة العالم ومصيره وفى عظمة الكون ونظام تسييره وهذه الآيات القرآنية الكثيرة التى جاءت فى هذا المجال والتى جعلت التفكير والسليم النظر الصحيح إلى آيات ما فى خلقه جل شأنه وسيلة من وسائل الإيمان بالله جل جلاله (١) .

ومن هنا فقد مهد الطريق وهيأ العقول لاستقبال النزعة الفلسفية .

لذا فإن موقف أهل القرآن من التراث العقلى الفلسفى كان موقف الترحيب فى كثير الحالات وذلك بفضل المعرفة الراقية الرفيعة التى صاغها القرآن وملأ بها وجدان المسلمين .

ومن ثم فإننا نلاحظ أن الفلسفة أو التراث الشرقى دخلا معا ديار الإسلام حين عنفوان شباب الدولة الإسلامية بل وتبذل الدولة فى سبيل ترجمة هذه الفلسفة والثقافات الأخرى الوفير من المال ثم لما

---

(١) انظر ص ١١ ، العقاد . الفلسفة القرآنية — دار نهضة مصر للطبع والنشر .

ترجمت الفلسفة لم يعرض عنها العقل الإسلامى ، بل أقبل عليها بالفهم والشرح والتأليف(١) .

ولقد كان لهذه الثقافات التى عرفها المسلمون بفضل الترجمات أثر عميق فى جميع حقول الفكر الاسلامى فظهرت مؤلفات المسلمين مقسمة بالدقة والتنظيم من تأثير دراسة المنطق ، ولا سيما فى علم الكلام الاسلامى الذى بدأ منذ مؤسس المعتزلة الأول واصل بن عطاء واستمر فى تدرجه التصاعدى حتى وصل إلى الصورة التى هو عليها الآن وقد مزجت أبحاثه بالأساليب الفلسفية والمنطقية ، واستطاع المسلمون أن يواجهوا أعداءهم بأسلحتهم التى كثيرا ماهاجموهم بها وأن يتحققوا فى ساحة النزال الفكرى .

الغلبة والنصر ، وكثيرا ما كانت جماهير الأمة تشاهد حلقات المناظرة بين مفكرى المسلمين وبين أعدائهم .

وقد خرج المفكرون المسلمون – بفضل قرآنهم وثقافاتهم المتنوعة – وراية الفوز تخفق فوق رؤسهم ، وعلامات الغبطة تملأ قلوبهم .

وهذا مايجعل الثقافة الراقية تنتشر بين جماهير الأمة ، فيزداد التفكير نضجا وتنتشر الألفاظ المستحدثة والمصطلحات العلمية والفلسفية فى كثير من العلوم .

---

(١) ص ٤٠ د. محمد إبراهيم الفيومى ، ملاحظات على المدرسة الفلسفية فى الاسلام ، طبعه أولى سنه ١٩٧٩ مكتبة الانجلو المصرية .

وهكذا كان للترجمات في خلق النهضة الفكرية تأثير فعال عميق غير مجرى الفكر، وخلق انقلابا ثقافيا عظيما، وخلق ثورة على الجمود العقلي في الأعصر العباسية تردد صداها في الشرق وسرعان ما ظهر أثرها في الغرب.

فقد كانت أوربا ترسف في قيود الجهل يوم كان مفكروا الدولة العباسية يصدرون تآليف تحمل طابعهم الديني والاجتماعي ويضيفون إلى سلسلة التفكير البشري حلقات دلت على سعة أطلاعهم وخلدت على الفكر فضلهم.

إن تأثير الترجمات على النواحي المختلفة للفكر لا ينكره إلا مكابر.

يقول الدكتور إبراهيم مدكور:

ولقد أدى هؤلاء النقلة للفكر العربي إلى جانب عملهم الرئيسي: « كنقلة » خدمات جليلة، فرغبتهم في نشر المعرفة حملتهم على تصنيف مؤلفات في موضوعات مختلفة من طب وطبيعيات وكيمياء وفلك ورياضيات وفلسفة.

وهذه المؤلفات أو المداخل وفقا للتسمية الوضعية التي أطلقها عليها أصحابها، نشرت الشعاعة الأولى للدراسات العقلية في العالم الاسلامي.

وهي عبارة عن ملخصات تعطي للقارىء فكرة مجملة عن العلوم المعروفة آنذاك وبكون أكثرها عملا يساعد على تعميم العلم ونشره،

عقبه دراسات التخصص والأبحاث العميقة التى سيقوم بها المسلمون فى مدارسهم المختلفة(١) :

لقد ظهر من بين المسلمين أعلام ومفكرون أفذاذ ساهموا فى أصول العلم وفروعه، ونبغوا فى كل فن ، ونزلوا كل ميدان واقتحموا كل معقل ، وأحاطوا بجميع ألوان الثقافة التى انبعثت من مراكز متعددة حتى سبقوا الغرب إلى الكثير من النظريات فى شتى المعارف ومختلف العلوم وأغنوا التراث العقلى والإنسان بكثير من المعانى والأفكار .

ولذلك فقد غدت الأمة الإسلامية وريثة الفكر الشرقى واليونانى والقيمة على ذخائر الثقافة والفن ، والممثلة الوحيدة للحضارة الإنسانية الرفيعة فى العصور الوسطى كلها .

فعظمت الحركة العقلية بين المسلمين واتسع نطاقها حتى شملت كل مظاهر الحياة تقريبا ولم يأت بعد هذه الحركة العلمية من مثيل لها فى التاريخ(١) .

لقد أحدثت العلوم والفلسفة أعظم الأثر فى يقظة الوعى وجودة الفهم وتفتح العقل والاسراف فى التفكير ويقظة الأذهان وتفتق القرائح وظهور رجال عظام سيطروا على ناصية الفكر وبلغوا ماشأوا

---

(١) راجع ص ٣٦ ج ٢ تاريخ الفلسفة العربية للفاخورى وآخر

(٢) انظر ص ٢٢٩ - ٢٣٠ د. مرحبا ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية .

بعيدا عن الفكر الفلسفى البناء عرفوا فى التاريخ باسم فلاسفة الإسلام .

وسوف نتحدث فيما بعد عن بعض آرائهم الفلسفية وأثرها فى إثراء الحياة الفكرية وفى تقدم المجتمعات الإنسانية إن شاء الله .



المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الإسلام والنصرانية — الإمام محمد عبده

٣ ـ الإسلام والعرب — روم لاندو ترجمة

٤ ـ الإنصاف للباقلانى — تحقيق زاهد الكوثرى

٥ ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية — د. ماجد فخرى وآخر

٦ ـ تاريخ الفلسفة العربية — د. جميل صليبا

٧ ـ تاريخ الفلسفة الأوربية — الفاخورى وآخر

٨ ـ تجديد الفكر العربى — د. زكى نجيب

٩ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية — د. عبد الرحمن بدوى

١٠ ـ التمهيد — الشيخ مصطفى عبد الرازق

١١ ـ الجانب الإلهى من الفكر الفلسفى — د. محمد البهى

١٢ ـ الجمع بين رأيى الحكيمين — للفاراب

١٣ ـ جوانب من التراث الفلسفى الإسلامى — د. محمد عبد الفضيل

١٤ ـ خصائص التصور الإسلامى ومقوماته — سيد قطب

١٥ ـ دروس فى تاريخ الفلسفة — إبراهيم مدكور وآخر

١٦ ـ دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى — د. محمود زقزوق

١٧ ـ الفرق الكلامية الإسلامية — د. على المغربى

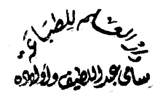
١٨ ـ فى الفلسفة الإسلامية — د. كمال جعفر

١٩ ـ فى الفلسفة الاسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية	د. عوض الله حجازى
٢٠ ـ فجر الاسلام	أحمد أمين
٢١ ـ الفصل	لابن حزم
٢٢ ـ الفلسفة الاسلامية	د. عرفان عبد الحميد
٢٣ ـ الفكر الاسلامى فى تطوره	د. محمد البهى
٢٤ ـ الفلسفة القرآنية	للعقـــاد
٢٥ ـ الفلسفة ومباحثها	د. أبو ريان
٢٦ ـ القرآن والفلسفه	د. محمد يوسف موسى
٢٧ ـ مجموعة الرسائل الكبرى	لابن تيمية
٢٨ ـ مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب	منير البعلبكى
	أوليرى / ترجم
٢٩ ـ المقدمة	لابن خلدون
٣٠ ـ ملاحظات على الدرســة الفلسفية فى الاسلام	د. محمد الفيومى
٣١ ـ الملل والنحل للشهرستانى	تخريج بدران
٣٢ ـ من الفلسفـة اليونانيـــة إلى الفلسفة الاسلامية	د. محمد عبد الرحمن مرحبا
٣٣ ـ من هدى القرآن	الشيخ محمود شلتوت
٣٤ ـ المنقذ من الضلال	للغزالى
٣٥ ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام	د. سامى النشار

نماذج من الحكمة الدينية عند المسلمين — د. سامي نصر

٣٦ - نصوص فلسفة عربية — أبو ريان

٣٧ - ينابيع الفكر الفلسفي وعوامل تطوره — د. محمد علاب



منشية ناصر — ش نبيل الوقاد — بجوار صيدلية الفتح

جامعة الازهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

فلسفـــة إسلاميـــة

تأليف

أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز محمود
الأستاذ المساعد بجامعة الازهر

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

ابن سيناء وعصره

لقد كان نبوغ ابن سينا ـ كنتاج لبيئته ـ شيئا متوقعا لاستغراب منه ولا عجب فيه .

وقد ينبغ ـ فى عصر من العصور أو فى وطن من الأوطان ـ بعض العباقرة فيستولى على الناس ضرب من الغرابة أو شيء من العجب لهذا النبوغ .

أما ابن سينا فلا يستغرب نبوغه فى عصره ولا فى وطنه ولا فى بيته ، بل الغريب أن يكون العصر والوطن والبيت على تلك الحالة من الثقافة والفكر والمعرفة ثم لايظهر فيه نابغ فيلسوف .

ولا مشاحة فى القول فى أن الفلسفة فى أى مرحلة من مراحلها الفكرية تسجل مظهرا رفيعا للتقدم الحضارى فى العصر الذى تزدهر فيه لأن الفحص الناقد القائم على التحليل والتأمل لايتيسر لفكر بدائى لايدرك المشكلة وعمقها الحقيق وإنما يتيسر ذلك لفكر صادر عن تأمل عقلى عميق يتميز فى الوقت ذاته بكونه صورة ايديولوجية لذلك العصر (١) .

ولقد شهد عصر ابن سيناء هبات فلسفية تحملها رياح الثقافات المختلفة التى استقر عرضها ـ بعد قبول ورفض وأخذ ورد ـ منذ كان الانفتاح الحضارى الكبير على مشرق الأرض ومغربها .

---

(١) انظر ص ٣٩ د . جعفر آل ياسين : المدخل إلى الفكر الفلسفى عند العرب طبعة ثالثة دار الأندلس بيروت .

ومنذ بدأ العامل الثقافى والحضارى يلعب دوره فى التلاحم الفكرى والعلمى مع تراث الشعوب الأخرى بعد أن مررت بقاع من الأرض شاسعة المدى وانضوى الجميع تحت الحرية الإسلامية المؤمنة بالعلم المنادية بأن (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أن وجدها) فالمعرفة ليست وقفا على شعب دون آخر(١) .

كما شهد هذا العصر — صراعا بين السلطة العباسية وبين الدعوة العلوية تلك التى إذا ذكرت معها مباحث النظر ومواهب الفلسفة ومدارس الحكمة والتصوف ، وكل دراسة يستعان بها على انكار الظاهر المكشوف الباطن المستور إذ كان العلويون من أنظار التجديد لأنهم خصوم السلطان القائم والحالة الواقعة(٢) .

كما شهد العصر امتزاج الفلسفة بفروعها المختلفة بالسياسة وقضايا الحكم واشتباكها على وجه الخصوص بمسألة الخلافة والملك والإمامة .

وليس من محض الصدف أن يتحدث الفارابى — اجملا — عن صفات الإمام الصالح على سنة الفلاسفة فيجعله من الأشقياء المعرضين عن المادة المقبلين على لذات الأرواح وأن يفصل اخوان الصفا ما أجمله المعلم الثانى إذ تقول رسائلهم داعية فى صراحة لأهل البيت .

---

(١) ص ١٣٤ د عوض الله حجازى : فى الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية .

(٢) انظر ص ٦ — ٧ الأستاذ العقاد : الشيخ الرئيس ابن سينا طبعة ثانية دار المعارف بمصر .

اعلم يا أخى بأنا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة فى فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم ، كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج لكيما إذا نظر فيها اخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها وعرفوا حقيقة ما هو مقرون بها من تفضيل أهل بيت النبى لأنهم خزان علم الله ووارثو علم النبوات تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة (١) .

فانتشار المباحث الفلسفية لا يستغرب فى عصر ابن سينا ، لأن الفلسفة لذة عقلية ومتعة ذهنية فى كل مكان وزمان .

بل لقد كان بيت ابن سينا مركزا من مركز الفلسفة فأبوه كان من طائفة الاسماعيلية أو على حد تعبير ابن القيم الجوازية كان ابن سينا كما أخبر عن نفسه هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين وكانت تلك الطائفة صاحبة مذهب فى الخلق والوجود وتفسير الشرائع بالظاهر من ألفاظها والباطن من معانيها فنشأ الحسين الصغير وهو يستمع إلى المناقشات الفلسفية والتأويلات الدينية فى النفس والعقل وأسرار الربوبية والنبوة .

لقد كان العصر الذى نشأ فيلسوفنا هـذا يتسم بالإزدهار العلمى والمعرفى ، ويكفى أن نقرأ أسماء بعض هؤلاء العباقرة العظام لنحكم على تقدم هذا العصر ؛ فلسفة وعلما فهو عصر أنجب ابن سينا فيلسوف

---

(٢) انظر رسائل اخوان الصفا تصحيح خير الدين الزركلى ـ المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٢٨ القاهرة .

العقل ، وابن الهيثم فيلسوف العلم ، والبيرونى فيلسوف الرياضة ، ومحمد ابن النعمان المعروف بالمفيد — فيلسوف الفقه والكلام ، والغزالى فيلسوف الشك والعرفان ، وغيرهم ممن تحفل بهم كتب الميراث الإسلامى (١) .

(١) انظر ص ١٦ د . جعفر آل ياسين . فيلسوف عالم : دار الأندلس طبعة أولى بيروت .

حياة ابن سينا العلمية

نشأ فيلسوفنا فى بيت كان على صلة بدعاة الاسماعيلية التى اصطبغت بالفلسفة .

يقول ابن سينا عن أبيه فيما رواه عنه تلميذه الجوزجانى : (وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الاسماعيلية ، وكان هؤلاء يتذاكرون أمر النفس والعقل فيما بينهم وهذه الأمور كنت أدركها ، ونفسى كانت لا تقبلها) .

وهذا يدل على مبلغ نباهته وذكائه . كما يدل على أنه كان ذا رأى مستقل فى بعض المسائل منذ صباه .

ولقد بدأ فيلسوفنا ثقافته كما كان يحدث عن نفسه بحفظ القرآن الكريم ودراسة مايلزم لفهمه من اللغة والأدب واستطاع أن يجيد ذلك كاملة وهو فى سن العاشرة مما أصبح حديث الناس (وحتى كان يقضى منه العجب)(١) .

ثم بدأ بعد ذلك دراسة الفقه وكان يتردد فيه إلى رجل يقال له : (إسماعيل الزاهد) وكان من أجود السالكين على حد تعبير ابن سينا نفسه .

وقد مرن ابن سينا فى وقت قصير على طريقة رجال الفقه التقليدية من فرض الاعتراضات والإجابة عليها وبذلك عرف فيلسوفنا الدين من صغره معرفة تكاد تكون تامة .

---

(١) القفطى ص ٤١٢ تاريخ الحكماء .

كما عرف الفلسفة حيث تفتحت عيناه وسمعت أذناه مبكرا تلك الأحاديث الفلسفية التى كانت تأخذ وقتا طويلا من حياة الأسرة وتدور حول مسائل فلسفية، وذلك على ما جرت به عادة الشيعة وما شاع من حب للفلسفة فى هـذا العصر حتى إذا ذكر فى ترجمة هذا الرجل أمير أو وزير أو صاحب شأن إلا ذكر من شأنه أنه كان يقتنى مكتبة عامرة بأسفار العلم والحكمة. أو أنه كان من محبى هذه العلوم علوم المنطق والنظر والدراسات الفكرية فيما وراء الطبيعة أو أنه كان يجلس للمناظرة والمساجلة، أو أنه كان يفتح داره لمن يتوافر فيها على التأليف والتصنيف (١).

وها هو القفطى يقول فى ترجمة الاسكندر الأفروديس رواية عن يحيى بن عدى الفيلسوف :

« إن شرح الاسكندر السماع الطبيعى كله، ولكتاب البرهان رأيتهما فى تركة إبراهيم بن على عبدا .. وعرضا بمائة دينار وعشرين دينارا فمضيت لاحتال بالدنانير وعدت وأصبت القوم قد باعوا الشرحين فى جملة كتب لرجل خراسانى بثلاثة آلاف دينار .. وكانت هذه الكتب تحمل فى الكم .. ».

فإذا كان : « رجل خراسانى » يشترى لفافة من الورق بهذا الثمن الضخم لأنها شروح فلسفية فقد علمنا إذن كيف كان شأن الفلسفة بين العامة فضلا عن الخاصة فى خراسان .

ومن هنا كان شغوف ابن سينا بالفلسفة، ولذا فقد أرسله أبوه

(١) انظر ص ٩ . العقاد : الشيخ الرئيس ابن سينا . دار المعارف بمصر طبعة ثانية .

لدراسة حساب الهندسة(١) على رجل كان يبيع البقل(٢).

وشاءت الأقدار أن ينزل (ببخارى) فى ذلك الوقت أبو عبد الله الناتلى وكان يلقب بالمتفلسف ، وقد تخرج على كتب الفارابى فى الحكمة والمنطق(٣) فأضافه عبد الله فى بيته رجاء أن يقوم بتعليم ولده . فدرس عليه ابن سينا (إيساغوجى) فى المنطق وقرأ عليه أيضا فى الهندسة خمسة أشكال أو ستة من كتاب (اقليدس) .

ولم يمض درج من الزمن حتى أصبح أستاذه الناتلى عاجزا عن مجاراته فى المنطق وعندها اضطر إلى أن يعتمد على مطالعاته الخاصة ، فقرأ بقية الكتب المؤلفة فيهما من غير أن يرجع إلى أستاذه ، لأنه كان ضعيف الثقة به(٤)

وليس غريبا أن نجد أن ابن سينا بدأ قراءة الكتب على نفسه بعد اجتيازه لمرحلة التلمذة التقليدية وأنه أدرك منها كما يقول فى املاء سيرته — أكثر مما أدركه على يد المعلم أو المرشد ، لأن فى بنية العباقرة من أمثاله مفاتح للعلم لا تستوى مع نظيراتها عند الآخرين .

ولعل فى استيعابه لمكتبة نوح ابن منصور سلطان بخارى يومذاك ما يدل بشكل واضح على عمق قدراته فى اقتناص الحقائق العلمية وهضمها

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٤ .

(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام ص ٢٦ .

(٣) ص ٢٤ المصدر السابق .

(٤) عيون الأنباء ج ٢ ص ٣ لابن ابى أصيبعة و ص ٢٦٨ القفطى تاريخ الحكماء .

وتمثلها فائقة بحيث أصبحت — فى نهاية الشوط — قنية يقتنيها ويتصرف بها كيف يشاء .

لقد هضم فيلسوفنا إذن العلوم الفلسفية من حكمة ومنطق ورياضة فبلغ فيها الغاية وهو فى الثامنة عشرة من عمره وكان فى أيام تحصيل العلم لا ينام ليلة بطولها ولا يلتفت بالنهار إلى عمل غير القراءة والتحصيل وربما غلبه النوم فإذا هو يحلم بتلك المسائل بأعيانها وتتضح له وجودها فى منامه .

وهى حالة يعرفها الدارسون ولا تستغرب — كما يقول العقاد — فى رأى العلم الحديث(١) ، لأن الوعى الباطن يتنبه فى هذه الحالة فيتعاون العقلان ولا ينفرد العقل الظاهر بالتفكير .

ويقرأ ابن سينا ذات يوم «كتاب ما بعد الطبيعة» لأرسطو ولكنه لم يفهم منه شيئاً وأعاد الرجل قراءة الكتاب مرة بعد مرة حتى حفظه دون أن يصل إلى غرض واضعه .

وكما يقول ابن سينا أعدت قراءته أربعين مرة صار لى محفوظا وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به وأيست من نفسى وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه وشاءت الأقدار أن يشترى ابن سينا كتابا بثلاثة دراهم فقط فإذا هو كتاب أبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة .

وعند قراءته وقف على أغراض الكتاب ، فشكر فيلسوفنا المولى جل جلاله على هذا وتصدق بكثير على الفقراء والمساكين .

---

(١) ص ١١ : الشيخ الرئيس ابن سينا .

لم يكتشف فيلسوفنا بتلك الثقافات العريضة وإنما اتجه بهمة ونشاطا لدراسة علم الطب الذى تعلق به كثيراً فقرأ فيه عدة مراجع وكان أشهر طبيب عرفته البشرية آنذاك فقد كان علم الطب فى رأيه وأنه ليس من العلوم الصعبة .

وكان منهجه أن يجمع المقدمات التى تتصل بالمشكلة ثم يرتبها ترتيبا منطقيا ليظفر بالنتيجة وكان كلما تعسر عليه أمر لجأ إلى الصلاة وابتهل إلى العلى القدير أن يلهمه الصواب فيها .

لقد أتقن ابن سينا الطب ونبغ فيه فى مدة قصيرة (حتى أصبح فيه عديم القرين ، فقيد المثيل ، واختلف فيه فضلاء هذا الفن وكبراؤه يقرءون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة)(١) وكان فيلسوفنا أو طبيبنا يعالج مرضاه تأدبا لا تكسبا(٢)

لقد كان هذا الرجل يستثمر كل دقيقة من حياته إستثماراً تاماً(٣) ففى أثناء النهار كان يوجه همه — بعد مشاركته فى شئون مجتمعه — إلى العناية بشئون الدولة أو يشتغل بالتدريس أو معالجة المرضى او بقراءة كتاب او بتأليف رسالة .

وبذلك صار ابن سينا على حد تعبير — دى بور — فيلسوف الشرق العظيم الذى تلتقى فى تأليفه لجميع المذاهب والذى عرف كيف يجمع مادة بحثه التى اقتبسها من كل صواب جمعا تتجلى فيه المهارة كما عرف

---

(١) ابن خلكان — وفيات الأعيان ج٢ ص ١٥٨

(٢) ص ١٥٨ من المصدر السابق .

(٣) نقلا عن مجلة المقتطف عدد ابريل سنة ١٩٥٢م ص ١٠ .

كيف يعرضها فى صورة سهلة الفهم(١) .

وبعد فهذه هى حياة فيلسوفنا بإيجاز شديد - ومنها ندرك أن هذا الرجل كان بحق عملاقا فى كثير من العلوم واستحق - عن جدارة - لقب الشيخ الرئيس وأمير الأطباء والمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى ، وبلغت عظمته أن أسدل - كما قيل عن جالينوس - ستاراً كثيفا على عقول من تبعه من العلماء قرونا كثيرة ، واعتبر من أعظم العقليات العلمية فى التاريخ والطبيب الأوحد طوال العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر وقد علقت صورته فى كنائس أوربية كثيرة ولا تزال تزين كبرى قاعات كلية طب جامعة باريس .

فلم يكن ابن سينا فى الغرب أقل نصيباً من غيره من عباقرة الرتب وعظماء التاريخ حتى سجل الفنان الإيطالى الشهير « رفائيل » بريشته المبدعة صورة تمثل الفلسفة ، ووضع ابن سينا ضمن مجموعة مختارة من رجال الفكر الممتازين الذين أسهموا بشكل عميق فى تغيير مجتماعتهم وتثبيت دعائم حضارتهم .

وفى حديث طريف للمستشرق والبريطانى « جب » - أستاذ الأدب العربى بجامعة اكسفورد - يشير إلى استكشاف صورة للشيخ الرئيس ابن سينا فى ترميم حدث فى قاعة المطالعة بجامعة اكسفورد :

فأثناء أعمال الإصلاح ظهر بهو شيد فى القرن السادس عشر للميلاد مركب فيه صور تمثل أعاظم الشخصيات فى تاريخ الأدب والفن

---

(١) انظر ص ١٦٦ - ١٦٧ : تاريخ الفلسفة فى الإسلام دى بور ترجمة أبى ريده : مطبعة التأليف والترجمة والنشر .

والفكر ، فهناك أفلاطون ، ارسطو ، وجنبهما صورة رجل آخر يختلف رسمه عن الرسوم الأخرى هيأة وشكلا عليه الملابس الشرقية او من يا ترى هذا الرجل ؟ واستمرت أعمال الترميم حتى ظهر اخيراً اسم الرجل ، وإذاهو الشيخ الرئيس ابن سينا(١) .

يقول الدكتور غلاب :

ومما لاريب فيه أن عصورنا الحديثة لا تكاد تقدم لنا شخصية مماثلة لهذا الفيلسوف اجتمعت لها عقلية نفاذة وأفق متسع وطبيعة قوية ونفس حرة وإرادة فولاذية كهذه الجوانب التي نستشفها واضحة بل واضاءة عند ابن سينا(٢) .

ولذلك فإن كثيرا من الجنسيات تفخره وتشرف ان ينتسب اليها هذا الفيلسوف الفذ .

يقول أحمد أمين فى تصديره للكتاب الذهبي للمهرجان الألفى لابن سينا(٣) .

كانت تتنازعه عصبيات مختلفة لأسباب مختلفة : فلما ان ولد فى تركستان قيل : إنه تركى فأقام الأتراك له مهرجانا ، ولأنه أقام بفارس تعصب له الفرس ، ولأنه تثقف ثقافة عربية تعصب له العرب .

---

(١) انظر جب بحثه المنشور فى الكتاب الذهبي لمهرجان ابن سينا الذهبى فى بغداد ص ٤١ .

(٢) ص ٢٢٧ د . محمد غلاب : المرونة عند مفكرى المسلمين : الدار المصرية للتأليف والنشر .

(٣) انظر كتاب فلاسفة الاسـلام ص ٣ فتح الله خليف دار الجامعات المصرية سنة ١٩٧٦ .

نهاية الفيلسوف :

وبعد هذه الحياة الحافلة كانت النهاية المحتومة حيث انتقل إلى رحمة الله مبدع الكل الذى طالما دعاه وتوجه إليه وأقبل بالعبادة عليه بعدأن تاب ورد المظالم على من عرفه وأعتق عبيده وقد فارق الدنيا سنة ٤٢٨ هـ وله من العمر سبعة وخمسون عاما .

مؤلفات الشيخ الرئيس :

حمل ابن سينا راية الفلسفة الإسلامية بعد أن وجد الطريق أمامه معبدا والغاية قريبة المنال ، ولقد واصل الرجل السير الجاد المثمر فترك للأجيال ثروة علمية وفلسفية ضخمة تميزت بسلامة الأسلوب وتقصى المسائل وعمق المعنى .

ولقد تفرقت هذه الثروة العظيمة فى جميع أنحاء العالم نظرا لأن حوادث الأيام قد شتتت مؤلفات الرجل فى أماكن مختلفة بحيث أصبح من النادر أن نجد مكتبة عظيمة خالية من مؤلفاته(١) العديدة ، ولاسيما كتبه :

الشفاء – النجاة – القانون – الاشارات والتنبيهات :

وسوف نكتفى بالحديث عن هذا الكتاب الأخير لأهميته العظمى حيث يمثل فكر فيلسوفنا الناضج فى نهاية عمره .

---

(١) الأب قنواتى ص ٦٦ مؤلفات ابن سينا منهج تطبيقها « الكتاب الذهبى » .

كتاب الإشارات والتنبيهات :

لعل هذا الكتاب هو أكثر كتب ابن سينا دلالة على فلسفته فهو يحمل خواطر الفيلسوف وإيضاحاته التي وضعها في أواخر حياته ، بعد أن اختمر أسلوب وصار مطواعا . إنه يمثل الدور النهائي في تفكير الشيخ الرئيس .

فقد اتفق المؤرخون على أن هذا الكتاب كان آخر ماصنعه فيلسوفنا في الحكمة وأجوده وأنه كان يضن به (١) على غير أهله .

ولهذا الكتاب أسلوب عذب يختلف عن أسلوب الشفاء والنجاة ، فبينما نجد في عبارة الشفاء موجا وانعطافا يدلان على ما في تفكير ابن سينا من حياة وعلى مافي حياته من قوة ، ونجد في عبارة الإشارات نحتا ورنة أدبية وسجعا ، وبينما نجد أسلوب الشفاء طويل الجمل مشوش الضمائر ، نجد أسلوب الإشارات مرصوص العبارة منتقى الألفاظ لا يخلو من الروعة والجمال(٢) .

ولقد كان فيلسوفنا هذا يعتز بالحكمة في هذا الكتاب فهو يقول في مقدمته لقسم الطبيعيات :

هذه إشارات إلى أصول وتنبيهات على جمل يستبصر بها من تيسر له ولا ينتفع بالأصرح منها من تعسر عليه ، والتكلان على التوفيق وأنا أعيد وصيتي وأكرر إلتماسي أن يضن بما تشتمل عليه هذه الأجزاء كل الضن على من يوجد فيه ما اشترطه(٣) .

---

(١) ص ٧ ابن أبي أصيبعة وانظر ص ٢٧٢ القفطي .
(٢) انظر ص ٢١٥ : تاريخ الفلسفة العربية د . جميل صليبا .
(٣) الاشارات : طبع سليمان دنيا ص ١٣٥ قسم الطبيعيات .

وما يشترطه هذا الفيلسوف يتلخص فى أن يصان هذا الكتاب عن كل ما لم يرقه الله حظا من الحكمة أو قدراً من الحقيقة أو إثارة من العلم أو يكون متسما بالجهالة والبلادة ولم يعط شيئا من الفطانة والوقادة (فإن وجدت من تثق بنقاء سريرته واستقامة سيرته ويتوقفه عما يتسرع إليه الوسواس وبنظرة إلى الحق بعين الرضا والصدق فإنه ما يسألك منه مدرجا مفرقا تستفرس مما تسلفه لما تستقبله .

وفى إحدى رسائله يقول : وأما كتاب الإشارات والتنبيهات فإن النسخة لا تخرج منها إلا مشافة ومواجهة ، وبعد شروط لا تعقد إلا مكالحة ، وليس يمكن أن يستفتح بها ويطلع معه غريب عليها أما الرغاع المصنفة ومن ليس من أهل الحقيقة فلا سبيل إلى عرض تلك الأويل عليهم(١) .

لقد كان كتاب الإشارات مفخرة ابن سينا الفلسفية .

ومن هنا فقد قال كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود(٢) شهرة واسعة فى أرجاء العالم فقد شرحه الكثيرون من متفلسفى العرب من بينهم ابن مكونة ونصير الدين الطوسى والامام فخر الدين الرازى يقول ابن خلدون :

« لأهل الشرق عناية بكتاب الاشارات ، والإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن ، وكذلك الآمدى وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسى

---

(١) انظر ص ٣٤٠ كتاب أرسطو عند العرب د . عبد الرحمن بدوى وص ٤٩ — ٥٠ د . العراقى : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا .

(٢) ص ١٦٧ ج ٣ التفكير الفلسفى فى الإسلام طبعة رابعة سنة ١٩٧٧ مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع .

المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الامام فى كثير من مسائله فأوفى على أخطاره وأبحاثه(١) .

ويقول عنه صاحبه « كشف الظنون »(٢) إنه كتاب صغير الحجم كثير العلم ، منطو على كلام أولى الألباب مبين للنكت العجيبة والفوائد الغريبة التى خلت عنها أكثر المبسوطات .

ويقول ابن أبى أصيبعه « فى عيون الأنباء » .

كتاب الاشارات والتنبيهات وهو آخر ما صنف فى الحكمة وأجوده .

ويقول الدكتور ابراهيم مدكور :

وهذا الكتاب بين المؤلفات السينية يتمية العقد وجوهرة التاج الثمينة ، وثمرة النضج الكامل ، يمتاز بسمو أسلوبه وعمق أفكاره وتعبيره عن آراء ابن سينا الخالصة التى لا تشوبها نظريات المدارس الأخرى ، وقد وقف صاحبه الجزء الأخير منه على البحوث الصوفية وتقع فى نحو خمسين صفحة تعد من أحسن ما خلفته المدرسة الفلسفية فى هذا الباب(٣) .

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١١٠٨ .

(٢) ج ٢ ص ١٩٢٩ حاجى خليفة .

(٣) ص ٥٠ ج ١ - د . ابراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه .

ابن سينا وآراؤه في النفس

تمهيد:

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يمنح الإنسان الذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه - فكراً حراً وعقلا طليقاً، وأن يسخر هذا الكون ويعبد طرقه ويهيء له فيه الحياة ويجعله سيداً رحمة منه جل جلاله وتكريماً لهذا الإنسان الذى فضله ربه على كثير ممن خلق تفضيلا.

ومن هنا فقد اتجهت عقول الباحثين وأفكار الفلاسفة وأبحاث المفكرين تحاول الوصول إلى كنه هذا الإنسان - الذى كرمه رب العالمين ببيان ماهيته وتوضيح حقيقته والوقوف على غوره، وهل هو جسد فقط أو هو جسد ونفس؟

وهل هما شيء واحد أو هما أمران متغايران؟

وإذا كانا متغايرين. فما حقيقة كل منهما؟

فلقد أدرك الانسان منذ وجد أن فى كيانه قوة مطلقة، تعمل دائماً فى يقظته وفى نومه، فى قريب المكان وبعيده، وتلقى إليه - على غير استدعاء منه - صوراً لا تنتهى من الخيالات والرؤى والأحلام وتعيد إليه كثيراً من ذكريات الماضى وكأنها وليدة يومها أو ساعتها. هذه القوة تمنح الجسد الحركة والحياة فإذا ما انسلخت منه فلا حركة ولا حياة.

والأمم مجمعة على الاعتقاد بهذه القوة «الروح» أو «النفس» حتى إن علماء اللغة أثبتوا أنه لم تخل لغة من لفظ يدل عليها فالانسان منذ القدم يميز بين المادة والروح حتى من قبل أن يتفلسف(١).

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٧ دابوبرت ترجمة احمد امين.

ولا شك أن هذه النفس تلتف بهالة من الغموض لأنها من عالم ماوراء الطبيعة ومن العسير أن نحدد معالمها أو نحلل حقيقتها فهي لا تخضع لفعل الانسان أو حواسه .

ومع أن الانسان — منذ القدم — حاول أن يكتشف أسرار الكون وقد استطاع — بعد لأى — أن يهتدى إلى كثير من خصائص الطبيعة وظواهرها مؤكداً حكمة الله « الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

ومع تمكن الانسان — بما وهبه الله — من قهر العالم الطبيعى وتسخيره لخدمته والسيطره على كثير من مظاهره . فإن ظاهرة النفس ظلت مغلقة عليه مجهولة لديه قرونا متطاولة نظراً لتعقدها وسرعة تغيرها .

ومن هنا اختلفت آراء المفكرين حولها وتضاربت أقوال الفلاسفة فى شأنها عندما أدلوا بآرائهم فى حقيقة الروح أو النفس فما استقام لهم نهج ولا صح لهم فكر ولا وضح لهم رأى ولذا فقد أحسن السلف الصالح رضوان الله عليهم صنعا عندما ابتعدوا عن الخوض فى طبيعة النفس البشرية ، باعتبار أن هذه النفس محاطة بحجب كثيفة من الأسرار والغموض ، لا يستطيع العقل الانسانى أن يقتحم حماها أو يقترب منها لكشف غموضها أو هتك أسرارها .

وكيف يصل هذا العقل(١) القاصر إلى كشف هذه الحقيقة

---

(١) اختلف العلماء فى بيان المقصود من الروح فى هذه الآية الكريمة وأظهر الأقوال أنها الروح المركب فى الخلق الذى يحيا به الإنسان : انظر السراج المنير ج ٢ ص ٣١٨ للخطيب الشربينى وانظر للفخر الرازى التفسير الكبير ص ٢٦ ج ٢١ طبعة ثانية دار الكتب العلمية طهران .

وكتاب الله يقول (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)(١).

إن القرآن الكريم لم يوضح لنا حقيقة الروح أو النفس لأن هذا ينطوى على أسرار ودقائق هيهات للعقول أن تدركها ولذا فإن الرسل عليهم السلام لم تكشف لنا هذا السر ، يقول الإمام الغزالى إن أمر الروح لم يبينه الرسل - والله أعلم - لأن كلام غيرهم بين أن يقبل أو يرد - يصدق أو يكذب - وكلام الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس كذلك . . . فإن المسألة فى نهاية الغموض والأذهان أكثرها ضعيفة فربما لم تفهم مقاصدهم(٢) .

وعندما يتعرض الزمخشرى لهذه المسألة يقرر أن هذا مما استأثر الله بعلمه(٣) .

ويقول الدكتور ابراهيم مدكور :

ان فى تعاليم القرآن ما لا يشجع على هذا البحث وأن بعض الفقهاء وعلى رأسهم مالك والشافعى حرموه(٤) لأن مسألة الروح - على حد تعبير صاحب الفلسفة القرآنية(٥) - أعضل مسائل العلم والفلسفة

---

(١) سورة الاسراء : ٨٥ .

(٢) انظر ص ٢٤٣ : معراج السالكين .

(٣) راجع ص ٥٥٧ ج ١ الكشاف .

(٤) ص ١٢٨ ج ١ فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه . دار المعارف بمصر طبعة ثالثة .

(٥) عباس محمود العقاد ٩٨ - ٩٩ . دار نهضة مصر للطبع والنشر بتصرف .

ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الإنسان فى حقائق الأشياء ، بين جميع أصحاب النحل والآراء فى جميع العصور .

وسواء فهمنا من النفس أنها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد أو فهمنا غير ذلك ـ فلا يزال العلم بحقيقتها قليلا أو أقل من القليل .

ومن معجزات القرآن أنه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة والعلم ، وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء .

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنسانى أن يخوض فى المسألة الإلهية وأن يصل إلى الايمان بالله عن طريق البحث والاستدلال والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة . فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر فى وجود الأشياء ووجود الأحياء ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ولا يذهب فيها مذهباً أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعاً . وهى إرادة الله أو أمر الله جل جلاله .

وقد عجب بعض المفسرين لذلك وراحوا يتساءلون . أتكون مسألة الروح أكبر من المسألة الإلهية وهى غاية الغايات فى سبح العقول .

ولكنهم فى الواقع يرجعون بالعجب إلى غير مرجعه الأصيل ، لأن المعضلة الفكرية لا تبلغ مبلغ الاعضال بمقدار عظمتها واتساعها بل بمقدار دقتها وخفائها . . . وقد تكون عوارض الشمس أوضح فى رأى العلماء من عوارض الذرة الخفية ، وبينهما من التفاوت فى القدر ذلك الأمد البعيد .

وقد أجمل الامام الرازى أسباب هذا الاعضال فى مسألة الروح

فقال :(١) .

« .... إنهم سألوا عن الروح - فى قوله تعالى يسألونك عن الروح ، الآية وأنه صلوات الله عليه وسلامه أجاب عنه على أحسن الوجوه وبيانه أن المذكور فى الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه » .

« أحدها » أن يقال ما ماهيته ؟ هل هو متحيز أو حال فى المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال فيه ؟

« وثانيها » أن يقال أهو قديم أو حادث ؟

« وثالثها » أن يقال هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟

« ورابعها » أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

« وبالجملة » فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة ، وليست فى الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا . إلا أنه تعالى ذكر فى الجواب (قل الروح من أمر ربى) وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين :

احداهما : السؤال عن الماهية أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبائع والأخلاط ؟

أم عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب . أم عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام أم عن موجود يغاير هذه الأشياء ؟

فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء ، بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : « كن فيكون » . فهو موجود

---

(١) انظر ص ٢٧ - ٣٨ التفسير الكبير للامام الرازى طبعة ثانية دار الكتب العلمية - طهران .

يحدث من أمر الله وتكوينه وتأثيره فى إفادة الحياة للجسد ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة ، نفيه مطلقاً وهو المقصود من قوله «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

«وثانيها ، السؤال عن قدمها وحدوثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل كقوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد)فقوله (من أمر ربى) معناه من فعل ربى . فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه فقال : بل هو حادث وأنه حصل بفعل الله وتكوينه ثم احتج على حدوثه بقوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) . يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها ثم تحصل فيها المعارف والعلوم . فهى لا تزال متغيرة من حال إلى حال والتغير من آمارات الحدوث» .

وتلخيص الامام الرازى هذا للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة كما بدت أمام المفكرين من الفلاسفة الأقدمين ، ولهذا كله فإن الجيل الأول من المسلمين قد آثر السلامة ورفض الخوض فى هذه المسألة المعقدة ووقف على شاطىء الأمان فابتعد عن البحث وترك الجدل والمراء فى مجال يتيه العقل فيه والحق أن الصعوبة أو المعضلة التى منعت الجيل الأول من الخوض فى طبيعة النفس والبحث عن كنهها قد اعترف بها الفلاسفة منذ زمن موغل فى القدم ، فنجد أفلاطون يذكر على لسان سقراط فى محاورته المعروفة عن النفس البشرية «فيدون» بأن الوصول إلى معرفة يقينية عن النفس هدف عزيز المنال(١) وهذا أيضاً ما يراه أرسطو حيث يشير إلى هذه الصعوبة فى مقدمة كتابه «النفس» فيقول :

---

(١) محاورة فيدون ص ٢٣٥ ضمن سلسلة كتب العالم العربى رقم ٧ .

إن الحصول على معرفة وثيقة عن النفس أمر على الاطلاق ومن كل وجه شديد الصعوبة(١) .

ولقد أدرك فلاسفة الإسلام ذلك أيضاً فيقول ابن مسكوية (إن الكشف عن حقيقة النفس وما نوع وصورة وجودها ، وما إذا كانت خالدة بعد انفصالها عن البدن ، وإذا كانت خالدة ففي أي صورة . أمور في غاية الصعوبة معرفتها)(٢) .

---

(١) كتاب النفس ص ١٠ ضمن سلسلة كتب العالم العربي : الكتاب الأول الفصل الأول .

(٢) ص ١٠ ابن مسكوية الفوز الأصغر نقلا عن ص ١٦٩ الفلسفة في الإسلام دكتور عرفان عبد الحميد ـ دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع . بغداد .

الإنسان والبحث عن المجهول

ومع كل هذا الغموض الذى اكتنف النفس البشرية ، والأسرار التى أحاطت بها .

ومع كل هذه العقبات التى كانت فى طريق العقل فى هذا المجال .

ومع كل هذه المعضلات التى جعلت البحث فى خبايا النفس عسيرا .

ومع اعتراف كثير من الفلاسفة والمفكرين بصعوبة الموقف ووعورة الطريق ، إلا أن الفكر البشرى لم يقف أمام هذا كله يائسا حائرا ، ولم يركن إلى الجمود والكسل ، فيبقى أيام الصعاب دون اقتحام وأمام العقبات دون ولوج ، معتذرا بأن سبيل البحث ـ فى هذه النفس ـ يكتنفه ظلام كثيف لاهداية له ولاضياء فيه ، لم يفعل الفكر هذا ، وإنما اقتحم ـ هذا الطريق ـ فى قوة واقتدار ، فمن الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى للعقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق وإما ـ إن امتنع ذلك ـ استكشاف الدليل الأقوى والقاء الضوء على خبايا النفس وبذل قصارى الجهد فى إدراك كنهها والوقوف على أمرها .

وذلك لأن الإنسان بفطرته طلعة ، يحاول دائما معرفة العلل والأسباب ، ويتشوق إلى رؤية المجهول ، ويتطلع إلى الكشف عن عالم الغيب (١) .

إنه محب لمعرفة كل شىء وهو فى معرفة الأشياء المجهولة أرغب .

---

(١) انظر ص ١٩٨ ج ١ . د . عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الاسلام .

وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة فى سبيل فهم الطبيعة وتوضيح آياتها ، فنفسه التى بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح .

هذا إلى أنه مدنى بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه ومعرفة نفسه كثيرا ما تعينه على تفهم بنى جنسه .

إن الشرائع والأديان تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان وتتجه إلى الأرواح أكثر مما تتجه إلى الأجسام ومن ثمة كان لابد من التفكير فى الروح للوقوف ولو على شىء يسير من أسرارها ، ففى أحوال الإنسان الفردية وظروفه الإجتماعية وفى بحوثه العلمية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذى أودعه الله فيه والذى آمن به دون أن يراه (١) .

(١) انظر ص ١٢٣ ج ١ فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه د. ابراهيم مدكور . بتصرف .

النفس فى التفكير الاضافى

لا نريد أن نطيل فى هذا الموضوع وإنما يكفى فقط أن نقول . إن مسألة النفس قد شغلت تفكير الإنسانية من عصورها الأولى وما برحت تحتل الصدارة فى البحوث الفلسفية والعلمية فى عصرنا الحاضر ، وكان الأغريق أكثر الناس اهتماماً بهذا النوع من الدراسات ، فإنهم اتجهوا أول الأمر يحاولون فهم الكون فلما رأوا عجزهم عن إدراك أسراره جنحوا إلى دراسة النفس لعلهم يجدون فى معرفتها سبيلا إلى معرفة ما عداها .

وقد كان هذا هو رأى سقراط بصفة خاصة ، حيث جزم بأنه لن يتاح للمرء أن يحيط بشىء علماً إلا إذا بدأ بمعرفة أقرب الأشياء إليه وأجدرها بعنايته وهو نفسه ، ولذا رضى أن يحيا كفيلسوف لا هم له إلا البحث عن حقيقة نفسه ونفوس الآخرين ولو كرهوا ، فإن أسوأ أدواء الإنسان الغرور الذى يدعوه إلى اعتقاد أنه يعلم كل شىء مع أنه يجهل أنه لم يؤت من العلم شيئاً مذكوراً .

وقدر لرسالة سقراط ان تؤتى ثمارها فحمل أفلاطون لواءها ، وشرع يفسر آراء استاذه ويكملها فيما يمس طبيعة النفس وخلودها فساق ، الأساطير التى تقرب حقيقتها إلى خيالنا ، وكان لبراهينه على خلود النفس أثر كبير فى توجيه الفلاسفة من بعده . وقد تابع أرسطو المسيرة فأخذ يبحث فى أصل النفس ومصيرها وآثر أن يعالج وظائفها من حركة وإحساس وخيال وإدراك وما إلى ذلك(١) .

---

(١) انظر ص ١ – ٢ د محمود قاسم : النفس والعقل لفلاسفة الأغريق والاسلام : مكتبة الانجلو المصرية ؛

وهكذا اتجهت الفلسفة اليونانية نحو دراسة الإنسان ومحاولة البحث فى الروح أو النفس وفى الفضيلة وغيرها من الصفات الإنسانية. وكان سقراط — كما قيل — هو أول من أنزل الحكمة من السماء وجعلها على الأرض عندما أظهر بطلان البحث فى تركيب السماء وطبيعة العناصر، وجعل المعرفة العلمية هدفاً واحداً هو الإنسان وهو بهذا الاتجاه قد فتح الفكر الإنسانى مجالا وبرنامجاً ما يزال برنامج التفكير الفلسفى حتى اليوم فقد تابع الفلاسفة والمفكرون السير فى هذا الطريق وقامت حول النفس أبحاث وعلوم وصلت إلى درجة هائلة من التقدم والرقى تدور كلها حول معرفة النفس البشرية وإماطة اللثام عن واها قوما ينتج عنها من آثار.

ولقد اختلفت آراء الفلاسفة والمفكرين فى النفس فمنهم الماديون الذين عالجوا النفس فى كتاباتهم فاعتبروها مجرد جسم لا ميزة له ولا اختصاص.

ومنهم الروحيون الذين أبعدوها عن عالم المادة ورأوا فيها قوة إلهية روحية تهبط إلى البدن من العالم العلوى ومنهم من وقف موقفا وسطا فجعلها مزاجا بين الجسم والروح أو بخاراً حاراً كما قال الرواقيون، أو صورة الجسم كما ارتأى ذلك أرسطو وأتباعه(١).

وقد درس كبار فلاسفة اليونان طائفة من الظواهر النفسية وفرقوا بين الإحساس والتعقل، ووضعوا فى ذلك كتبا عديدة كان لها أثرها فى العالم الإسلامى.

---

(١) ص ١٢٨ ج ١ د. ابراهيم مدكور فى الفلسفة الاسلامية

النفس عند فلاسفة الإسلام

وقف فلاسفة الإسلام على أبحاث الأغريق فى النفس مع غيرها من الأبحاث الفلسفية التى شغفوا بها كثيراً فاطلعوا على فلسفة أرسطو وكتاباته فى النفس ، كما قرأوا فلسفة أفلاطون والأدلة العديدة التى تحدث فيها عن النفس وخلودها ، كما اطلعوا على فلسفة هجينة تجمع بين اتجاه أرسطو واتجاه أفلاطون . ونعنى بهذه الفلسفة الهجينة مذهب أفلوطين من مدرسة الأسكندرية (١) . ولقد عاش فلاسفة الإسلام بفكرهم مع هذه المدارس وعرفوا إتجاهاتها فبدأت اهتماماتهم بهذه الأبحاث وبما كتبه أرسطو خاصة عن النفس ، ومن الثابت أنهم أخذوا عنه جل آرائه فيها ، ولكنهم وجدوا لديه آراء لا تتفق مع الدين فطفقوا يوفقون بينها وبين عقائدهم ، وليس بصحيح أن فلاسفة الإسلام كانوا مجرد نقلة للفلسفة الأغريقية أو أنهم شوهوها فى هذا المجال فإن ابن سينا استطاع أن ينشيء مذهبا جديداً فى النفس .

وقد أخذ فلاسفة الإسلام عن أرسطو بعض أرائه فى النفس ولكنهم خالفوه فى مسائل كثيرة فإنهم قالوا : أن النفس جوهر روحى لا يفنى بفناء البدن (٢) .

لقد كان اهتمام فلاسفة الإسلام بالأبحاث النفسية مظهراً رائعاً للعقلية المتفتحة التى صاغها القرآن الكريم ، ودفعها الرسول ﷺ

---

(١) راجع ص ٢ ، د محمود قاسم دراسات فى الفلسفة الإسلاميه طبعة ثانية دار المعارف .

(٢) انظر ص ٢ ، د. محمود قاسم : النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والإسلام مكتبة الانجلو المصرية .

إلى قراءة الثقافات المختلفة للوقوف على كنهها وأخذ منها مايتفق مع مبادىء الدين الحنيف ورفض الأفكار التى تتعارض مع قيمه أو لا تلتقى مع أهدافه وعقائده ، فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها من كل الأمكنة طالما لا تشكل خطورة على دينه .

ولذا فقد ظهرت أبحاث لفلاسفة الاسلام شاركوا فيها بآرائهم فى هذا المجال .

فقد وضع الكندى - فيلسوف العرب - عدة رسائل فى النفس وبعده بقليل وضع إخوان الصفا رسائلهم التى هى أشبه ما يكون بدائرة معارف فلسفية .

ولقد جاءت أبحاثهم فى النفس الكلية أو نفس العالم إلا أنها غارقة فى بحر الهيولى ولا يمكن أن تصير عقلا بالفعل إلا بالتدرج ولها قوى ظاهرة وباطنة وأسماها القوة المفكرة التى تميز بين الإنسان والحيوان وتعرف الحق من الباطل . وتوصل إلى العلم والمعرفة التى هى لباب الحياة ( ) .

ولقد تابع الفارابى وغيره هذه الابحاث وكانت لهم آراء جديدة جديرة بالدراسة والبحث .

إن فلاسفة الإسلام لم يقصروا فى هذا الجانب ، فلم يتركوا مصدرا يتصل به إلا بحثوا عنه ولا فكرة تحوم حوله إلا نشروها ورددوها فيما بينهم مؤيدين أو معارضين ، فتوافر من أبحاثهم مادة غزيرة اجتمعت فى بيئة واحدة وإن تعددت أصولها ومنابعها(٢) .

---

(١) راجع ص ٨ ج ٢ رسائل اخوان الصفا - القاهرة ١٩٢٨ م .

(٢) انظر ص ١٣٣ ج ١ ، د . مدكور فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه .

النفس عند ابن سينا

كان ابن سينا ـ بحق ـ إمام فلاسفة الإسلام فى دراسة النفس فهو أول فيلسوف مسلم إهتم بها اهتماما لا تجد له مثيلا لدى أحد من الفلاسفة السابقين ، حتى إننا لا نجد كتابا من كتبه يخلو من ذكر النفس والبرهنة على وجودها وخلودها وبيان طبيعتها وقواها .

وإذا كان فيلسوفنا قد أخذ كثيرا من آرائه النفسية عن المفكرين السابقين . فليس ثمة شك فى أن النتائج التى وصل إليها تختلف عن نتائجهم اختلافا بينا سواء من حيث العمق والاستقصاء أو من حيث الاتساع والشمول أو من حيث الغرض والغاية (١) .

لقد تأثر ابن سينا بدراسات من سبقوه فى هذا المجال سواء انتهى إلى تأييد آرائهم أو معارضتهم . تأثراً بأبحاث أفلاطون الذى اهتم اهتماما فائقا بإثبات(١) وجود النفس والبرهنة على خلودها .

كما تأثر بأفكار أرسطو وأفاد منها حتى أنه خصص جزءا كبيرا من كتاب « الانصاف »(٢) ، للتعليق على كتاب النفس تعليقات غاية فى الأهمية .

كما اطلع على دراسات أفلوطين من خلال بعض تاسوعاته المنسوبة خطأ إلى أرسطو والمعروفة باسم أثولوجيا أرسطوطاليس .

---

(١) انظر ص ٥٢٢ د . مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية .

(٢) حقق الدكتور عبد الرحمن بدوى ثلاثة أقسام من هذا الكتاب انظر ص ٢٢ وما بعدها أرسطو عند العرب ج ١ سنة ١٩٤٧ د بدوى وانظر الأب قنواتى ،ؤلفات ابن سينا « فلسفة عامة » رقم ٦ .

هذا بالإضافة إلى أنه اطلع على دراسات أسلافه من فلاسفة الإسلام وهضمها تماما ، ثم أضاف إليها عناصر جديدة لانجدها - كما قلنا - عند من سبقه من فلاسفة اليونان أو فلاسفة الاسلام ، ونستطيع أن نتعرف عليها من خلال كتاب الشفاء والنجاة وعيون الحكمة والاشارات والتنبيهات ، وكذلك رسائله الصغيرة فى النفسانيات بالإضافة إلى كتابه القانون فى الطب الذى نجد فيه بدوره دراسة لقوى النفس وصلتها بالجسم وبيانا للظواهر النفسية

وهذه العناصر الجديدة هى ما جعل له تأثيرا عظيما فيمن جاء بعده ، بعد أن ترجمت كتبه إلى اللاتينية

ولو كانت أبحاث ابن سينا مجرد صدى وترديد لآراء من سبقوه لما كانت له هذه المكانة التى قلما توافرت لفيلسوف غيره(١) .

أجل : لقد كانت النفس الانسانية من أهم الموضوعات التى شغلت فيلسوفنا واحتلت مكانا بارزا فى فلسفته(١) فهو يخصص لها رسائل كاملة بلغت أكثر من ثلاثين رسالة(٢) .

ويفرد ابن سينا للنفس القصص الرمزية مثل قصة « حى بن يقظان » وقصة « سلامان وأبسال » كما يخص النفس البشرية بفصول عدة فى أهم مؤلفاته الفلسفية .

وكان ابن سينا يرى أن معرفة النفس تقودنا إلى معرفة الله التى هى

---

(١) انظر ص ١٤٥ — ١٤٦ د . محمد عاطف العراقى : مذاهب فلاسفة المشرق طبعة رابعة دار المعارف بمصر

(٢) انظر الأب قنواتى مؤلفات ابن سينا ص ١٤٢ وما بعدها دار المعارف القاهرة سنة ١٩٥ .

مصدر السعادة فى الدنيا والآخرة ، ويذكر ابن سينا أنه قرأ عن الحكماء السابقين أنهم قالوا :

« من عرف نفسه عرف ربه »(١) . ويستشهد ابن سينا على أن من عرف نفسه عرف ربه بكتاب الله ، بقوله تعالى : (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) .

فالله تعالى قد علق نسيان النفس بنسيانه ، وتلك قرينة على أن تذكره بتذكرها ومعرفته بمعرفتها(٢) .

ومن ثمة فقد أكثر ابن سينا الحديث على النفس فى أشهر كتبه ، فنجده فى كتابه القانون(٣) يتكلم عن قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ، ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم

ويعقد فى كتابه « الشفاء » فصلا مستفيضا يوضح فيه آراءه الفلسفية ، ويلخص فى كتاب « النجاة » ما كتبه فى الشفاء(٤) .

ويتحدث فى كتابه القيم « الاشارات » عن النفس أيضا ، بل وينظم فيها قصيدة هى — على حد تعبير ابن أبى أصيبعه — من أجل قصائده وأشرفها وباختصار فإن عناية ابن سينا — كما يقول دى بور — كانت موجهة دائما إلى النفس ، بل هو يسمى موسوعته الفلسفية « الشفاء » أى شفاء النفس من جهلها عند اطلاعها على الفلسفة ، فعلم النفس هو محور فلسفته حيث انصبت أبحاثه على النفس بشكل خاص وحاول كشف معالمها وسبر

(١) د . فتح الله خليف ص ١٢٦ : فلاسفة الاسلام .
(٢) راجع ص ١٢٦ : د . فتح الله خليف فلاسفة الاسلام .
(٣) انظر ص ١٣٥ . ج ١ د . مدكور فى الفلسفة الاسلامية .
(٤) انظر ص ١٧٦ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ترجمة أبو ريدة .

قواها بمنظور منهجى جديد استعار بعض مقوماته من مجموعة آرائه عن الكائنات العليا وتدرجها الوجودى . معتمدا على وحدة النفس وأنها هى الأصل فى انبعاث القوى ، وأن جوهرها مغاير لجوهر البدن وليست هى بثلاثية التقسيم كما ذهب إلى هذا بعض المدارس الفلسفية القديمة (١) .

وجود النفس :

لم يهتم الفلاسفة الأوائل باثبات وجود النفس وإن اهتموا بالبحث عن حقيقتها ، وعندما بدأ الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابى يسير فى هذا الطريق ويحاول أن يلقى الضوء على خبايا النفس البشرية ، فانه وإن لم يثبت وجودها تصريحا فقد أثبته تلميحا وذلك عندما ميز بين الأجسام الحية وما يصدر عنها من أفعال ، وبين سائر الأجسام . ثم لما أتى بالبراهين على إثبات مفارقة (النفس الناطقة) فقال إنها تدرك المعقولات والأضداد وأنها تدرك ذاتها بدون آلة وأن العقل الذى هو أعلاها قد يقوى بعد الشيخوخة .

ولما جاء فيلسوفنا فإنه أحال التلميح إلى التصريح وانتقل من الإشارة إلى العبارة (٢) فهو يأخذ على الفلاسفة السابقين تقصيرهم فى إثبات النفس .

ولذا فإن ابن سينا يكمل ما قد قصر فيه من سبقه ويسير على ما يعتمده

---

(١) راجع ص ١٧١ – ١٧٢ د . جعفر آل ياسين : فيلسوف عالم .

(٢) ص ٢٥٩ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية . د . مرحبا .

عليه المنهج من إثبات وجود الشيء قبل البحث في ماهيته . ولذلك فإن فيلسوفنا يقدم لتعريفه العام للنفس بقوله :

« إن أول مايجب أن نتكلم فيه إثبات وجود الشيء الذي يسمى نفسا ثم نتكلم فيما يتبع ذلك ، لأن الذي لايفعل ذلك يكون قد انحرف عن طريق النهج القويم وترك سبيل الايضاح .

« لأن من رام وصف شيء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أنيته (وجوده) فهو معدود عند الحكماء ممن زاغ عن محجة الايضاح ، فواجب علينا إذن أن نتجرد أولا لإثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع في تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها »(١) .

ثم يأخذ بعد ذلك في إثبات وجودها بالبراهين والأدلة وذلك قبل حدها تمشيا مع مبدئه الذي الزم نفسه به(٢) .

(١) انظر ص ٨ رسالة القوى النفسانية لابن سينا .

(٢) ص ٢٤٦ . د . محمد غلاب - المعرفة عند مفكري المسلمين .

براهين ابن سينا على وجود النفس

هناك عدة براهين يسوقها ابن سينا ليثبت بها القوى النفسانية وبالتالى وجود النفس الانسانية وخلاصتها ما يأتى :

أولا : البرهان الطبيعى :

يعتمد هذا البرهان ـ كما يراه ابن سينا ـ على التفرقة بين نوعين من الحركة : ذلك أننا لا يمكن أن نفسر بعض الآثار التى تبدو على الإنسان تفسيرا صحيحا إلا إذا سلمنا بوجود نفس فيه ، وأهم هذه الآثار الحركة والإدراك .

أما الحركة فهى قسمان : قسرية تحدث عن محرك خارجى . وغير قسرية تحدث «عن مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من أعلى إلى أسفل ، أو ضد مقتضى الطبيعة كالإنسان الذى يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه إلى السكون أو كالطائر الذى يحلق فى الجو بدل أن يسقط إلى مقره فوق سطح الأرض ، وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم المتحرك وهو النفس »(١) .

فالحركة صفة ذاتية فى النفس وليست كذلك بالنسبة إلى الجسم ، ولما كانت النفس هى التى تحرك الجسم . فمن الواجب أن تختلف عنه طبيعتها ، فالجسم ليس مصدرا للحركات التى يقوم بها يتقبلها من مصدر آخر وهذا المصدر هو النفس :

---

(١) انظر ص ٢٠ ـ ٢١ رسالة فى القوى الانسانية لابن سينا .

ومن الواضح أن هـــذا البرهان ليس مقصورا عـلى إثبات النفس بل يهدف ـ فى الوقت نفسه ـ إلى بيان أنها مختلفة فى طبيعتها عن الجسم .

يقول ابن سينـا :

إننا : « نشاهد أجساما تحس وتتحرك بالإرادة بل نشاهد أجساما تتغذى وتنمو وتولد المثل . وليس ذلك لها بجسميتها ، فبقى أن تكون فى ذواتها مبادىء لذلك غير جسميتها .

والشيء الذى تصدر عنه هذه الأفعال ، وبالجملة كل ما يكون مبدءا لصدور أفاعيل ليست على وتيرة واحدة عادمة للارادة ، فإنا نسميه نفسا » (١) .

ثانياً : برهان الإدراك والأفعال الوجدانية :

إن الإدراك ظاهرة تبدو على بعض الأجسام دون البعض الآخر بينما صفة الجسمية مشتركة بينها جميعا ، فلابد للأجسام الداركة أن يكون إدراكها بقوى محمولة فيها زائدة على جسميتها صفتها الإدراك وهذه القوى بالضرورة قوى نفسانية(٢) .

فمن خواص الانسان ـ دون الحيوان ـ أنه يتبع إدراكاته للأشياء النادرة بعض الانفعالات كالتعجب ويتبعه بالضحك . كما يتبع إدراكه

---

(١) انظر الشفاء : الفصل الأول ، المقالة الأولى الفن السادس .

(٢) انظر ص ٥٣ : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلاميـــة د/ مرحبا .

الأشياء المؤذية انفعال بالضجر ويتبعه بالبكاء . وقد يتبع شعوره بشعور غيره أن فعل شيئا من الأشياء التي أجمع الناس على أنه لا ينبغي أن يفعلها انفعال نفساني يسمى الخجل .

يقول ابن سينا :

« ومن خواص الإنسان أن يتبع إدراكاته الأشياء النادرة انفعال يسمى التعجب ويتبعه الضحك ، ويتبع إدراكه الأشياء المؤذية انفعال يسمى الضجر ويتبعه البكاء . . . » إلخ (١) .

يضاف إلى ما ذكرنا قدرة الانسان على إدراك الأشياء مجردة عن خواصها الجزئية والمادية كإدراك النفس مثلا لفكرة التثليث في المثلث أو التربيع في المربع . لأن من أخص خواص الإنسان ـ في رأى الفيلسوف ـ تصور المعاني العامة المجردة عن المادة كل التجريد والانتقال من المعلوم إلى المجهول .

يقول ابن سينا :

إن أخص الخواص بالإنسان تصور المعاني العامة المجردة من المادة كل التجريد والتوصل إلى معرفة المجهولات تصديقا وتصورا من المعلومات العقلية .

« فهذه الأحوال والأفعال المذكورة هي مما يوجد للإنسان وجلها يختص به الإنسان ، وإن كان بعضها بدنيا . لكنه موجود لبدن الإنسان بسبب النفس التي للانسان » .

---

(١) انظر الشفاء لابن سينا ـ الطبيعيات ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ منه ٦ فصل ١ مقالة ٥ .

ثم هو يمتاز بالقدرة على التفرقة بين الخير والشر والحسن والقبيح ، والنفس هي القوى التي لها هذه القدرة لأنها جوهر منفرد .

يقول ابن سينا في نهاية هذا البرهان :

« النفس هي الشيء الذي له هذه القوى وهو كما تبين جوهر منفرد » (١) .

وهكذا أمكن لابن سينا أن يؤكد على وجود النفس الانسانية من خلال النظر في وظائفها التي تقوم بها كالانفعالات وإدراك الأشياء وتجريدها وتعقل صورها والتفرقة بين الأشياء والمعاني المتضادة كالحسن والقبح والعدل والظلم وما إلى ذلك .

ثالثاً : برهان وحدة النفس :

كان الفليسوف اليوناني الشهير « أفلاطون » يقول : بوجود ثلاث نفوس ، مستقل بعضها عن بعض من الوجهة التشريحية ، وهي النفس العاقلة والنفس الغضبية والنفس الشهوانية(٢) .

أما ابن سينافيرى أن تعدد وظائف النفس ليس دليلا على انقسامها إلى أقسام مختلفة ، بل هي نفس واحدة أو وحدة نفسية متكاملة جامعة لشتى القوى والوظائف مهما بدت مختلفة إلا أنها في نهاية الأمر متكاملة ويعبر ابن سينا عن وحدة النفس بقوله :

---

(١) المصدر السابق .

(٢) راجع تاريخ الفلسفة اليونانيه : يوسف كرم وقصة الفلسفه اليونانيه : أحمد أمين .

« وأنه يجب لهـذه القوى الشهوانية والغضبية والمدركة وجود رباط يجمع بينها كلها ، وتـكون نسبته إلى هذه القوى نسبة الحس المشترك إلى الحواس ، فإنا نعلم أن هـذه القوى يشغل بعضها بعضا ويستعمل بعضها بعضا ، وهذا الشيء لا يجوز أن يـكون جسما ، ولا اعتراض على أن النفس غير الجسم ، لأن هذا الذي ليس بجسم يجوز أن يـكون منبع القوى . فيفيض عنها بعضها فى الآلة وبعضها يختص بذاتها .

وأما الجسم : فلا يمـكن أن تـكون هـــذه القوى كلها فائضة عنه ، فإن نسبة القوى إلى الجسم ليس على سبيل الفيضان بل على سبيل القبول »(١) .

إن المقصود بالنفس هنا ـ كما يقول الفيلسوف هو ما يشير إليه كل واحد منا بقوله « أنا » وهذه الأنية لا ترجع إلى الجسم وظواهره وإنما ترجع إلى النفس وقواها .

فعندما يقول الإنسان أنا مشيت أو أنا أكلت فإنه لا يقصد حركة رجليه أو فيه بل يقصد ذاته كلها ، فمهما تنوعت أحوالنا النفسية واختلفت فإنها تتصدر ، جميعا عن شخصية واحدة وقوة عظيمة توفق بين المختلف وتوحد المؤتلف ، ولولا هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها ولطغى بعضها على بعض .

(١) انظر ج ١ ص ٣٦٢ الشفاء .

يقول ابن سينا :

إن الإنسان يقول أدركت الشيء الفلاني ببصري فاشتهيته أو غضبت منه .

وكذا يقول أخذت بيدي ومشيت برجلي وتكلمت بلساني . . فنحن نعلم ان في الإنسان شيئا جامعا يجمع هذه الإدراكات والأفعال . ونعلم أيضا بالضرورة أنه ليس شيء من أجزاء هذا البدن بجمعا لهذه الإدراكات والأفعال . الإنسان الذي يشير إلى نفسه « أنا » مغاير لجملة أجزاء البدن فهو شيء وراء البدن(١) .

ولا يفرق فيلسوفنا بالنسبة لمفهوم الذات بين « أنا » و « أنت » من حيث هوية الطرفين . فهو يقول :

« أتحصل أن المدرك منك أهو ما يدرك البصر من أهابك ؟ لا . فإنك إن انسلخت عنه وتبدل عليك كنت أنت أنت (٢) .

ومن ثم فإن أول الإدراكات على الاطلاق وأوضحها هو إدراك الإنسان نفسه ، وظاهر أن مثل هذا الادراك لا يمكن اكتسابه بحد أو رسم ، أو إثباته بحجة أو برهان ، والنفس الإنسانية في هذا الدليل هي التعبير الداخلي الذي يستحضر فيه الكائن العاقل ذاته ، حتى لو كان

---

(١) رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ص ١٨٣ تحقيق د . ثابت الفندى القاهرة سنه ١٩٣٤ م ، وانظر ابن سينا والنفس البشرية — البير نصرى نادر بيروت سنه ١٩٦٠ .

(٢) ابن سينا ص ٣٢٢ الاشارات .

غافلا عن جميع أجزاء بدنه ، لأن المعلوم بالفعل - كما يرى الفيلسوف - غيرها هو مغفول عنه - فذات الإنسان غير بدنه .

وبهذا تقرر وحدة النفس فى شخصية الفرد رغم تباين وتضارب صفات الأفعال من حال إلى حال ومن سلب إلى إيجاب ومن بساطة إلى تركيب . . فكأن النفس هنا هى بمثابة الحس المشترك بالنسبة للمحسوسات المختلفة ، كلاهما يلم الشعث ويبعث عليه النظام والترتيب (١) .

ورأى الشيخ الرئيس يمثل ردا - كما قلنا - على ثلاثية النفس الأفلاطونية وانقسامها فى البدن الواحد ، ويمثل فى الوقت ذاته تأكيدا على بساطة جوهرها ووحدة وظائفها وتفسيرا لماهيتها .

ويعتبر هذا الدليل من مأثورات ابن سينا الممتازة حيث نجده يحاول التأكيد عليه بصورتين متألقتين بالخيال والتجديد والعمق وأسوق للقارىء الكريم هاتين الصورتين .

(أ) صورة الثياب :

يشبه الشيخ الرئيس - فى هذه الصورة - الجسم وأعضاءه بالثياب التى تعودنا عليها وأشتد الفنا لها من طول ملازمتها لنا إلى حد أننا أصبحنا نعتقد بأنها من ماهيتنا وحقيقتنا ، علما بأنها ليست هى كذلك لأنها عارية فحسب ، وقد عبر فيلسوفنا عن هذه الصورة بقوله :

لو خلق إنسان دفعة واحدة ، وخلق متباين الأطراف ، ولم يبصر

(١) ص ٩ - ١٠ ابن سينا : رسالة فى معرفة النفس الناطقة .

أطرافه ، واتفق أنه لم يمسها ولا تماست ، ولم يسمع صوتا . جهل جميع أعضائه وعلم بوجود انيته (ذاته) شيئا مع جهل جميع ذلك ، وليس المجهول بعينه هو المعلوم ، وليت هذه الأعضاء لنا فى الحقيقة إلا كالثياب ، التى صارت لدوام لزومها إيانا كأجزاء منا عندنا ، وإذا تخيلنا أنفسنا لم نتخيلها عراة ، بل نتخيلها ذواة أجسام والسبب فيه دوام الملازمة ، إلا أننا قد اعتدنا فى الثياب من التجريد والطرح ما لم نعتد فى الأعضاء ، وكان ظننا الأعضاء جزءا منا آكد من ظننا الثياب أجزاء منا . . . .

فبين من هذا أن لهذه القوى مجمعا هو الذى يؤدى كلها إليه وأنه غير جسم (١) .

(ب) صورة الرجل الطائر :

حلق بخيالك المجنح وتصور أن إنسانا خلق كاملا دفعة واحدة ، ثم بدأ هذا الكائن يسقط فى الفضاء الخارجى ، بحيث لا يحس — مهما أراد — بعضو من أعضائه سوى ذاته التى بين جنبيه — فنى رفض هذا الانسان لعمليات الحس على اختلاف أنواعها ، ما يؤدى به إلى محصلة واحدة ، هى بقاء الشعور بالذات وتلك فى الحقيقة هى النفس يقول فيلسوفنا :

(يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا . لكنه حجب بصره عن رؤية الخارجات ، وخلق يهوى فى هواء ، أو خلاء هويا لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما ما يحوج إلى أن يحس ، وفرق بين

---

(١) راجع كتاب الشفاء لابن سينا ، قسم النفس ص ١٦ .

أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس . ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته ؟ ولا يشك فى إثباته لذاته موجودا ، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ، ولا باطنا من أحشائه ، ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج ولو أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يدا أو عضوا آخر لم يتخيله جزءا من ذاته ولا شرطا فى ذاته وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت ، والمقر به غير الذى لم يقر به فإذن للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هى بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم تثبت (١) .

ويتضح من هاتين الصورتين الخياليتين أن ابن سينا قد سبق الفيلسوف الفرنسى ديكارت الشهير - إلى فكرة « الكوجيتو » : (أنا أفكر إذن انا موجود) .

فكأن ديكارت لم يبتكر شيئا وإنما أخذ أحدى صور ابن سينا وجعلها محورا لفلسفته ، التى تبدأ بإثبات وجود النفس عن طريق الشك المنهجى ، فهو الآخر يشك فى وجود كل شيء : فى وجود العالم الخارجى ، وفى جميع الآراء التى تلقاها عن غيره وفى وجود جسمه وأعضائه ، لكى يبرهن لنا على أنه لا يستطيع الشك مطلقا فى أنه ذات مفكرة .

ومما يدل على أنه اقتفى أثر ابن سينا فى هذا الموضوع(٢) أنه

---

(١) انظر الشفاء - لابن سينا ج ١ ص ٢٨١ وص ٣٢ ، القسم الثانى : الاشارات .

(٢) راجع ص ٤٠ د/محمود قاسم . دراسات فى الفلسفة الاسلامية ، دار المعارف بمصر طبعة ثانية سنة ١٩٦٧ هذا ومن المعروف أن كتاب الشفاء ترجم إلى اللاتينية وأن آخر طبعه كانت قبل ميلاد « ديكارت بخمسين سنة فقط راجع ص ١٥٧ د . مدكور ج ١ فى الفلسفه الاسلامية .

استخدم الشك لكى يكشف لنا عن طبيعة النفس وعن مخالفتها للبدن ، وهكذا يتضح لنا أن الفكرة الإساسية فى البرهنة على وجود النفس عند ديكارت وفيلسوفنا هى اتباع طريق منهجى يؤكد لنا به كل منهما آراءه فى النفس ، وأنها هى العنصر الجوهرى فى الإنسان .

رابعا : برهان الاستمرار :

يعد هذا البرهان من أقرب البراهين إلى علم النفس بالمعنى المعاصر . وهو يقوم على القول المعبر عن أحوال الإنسان وتغيرها ، ولكنها مع ذلك تتصف بالاستمرار والاتصال بين الماضى والحاضر والمستقبل .

إن حياة الإنسان فى حركة مستمرة وفى تغير دائم(١) . ومع ذلك فحركتها متصلة وتغيرها فى إطار يربطها ، وليس ذلك إلا مظهرا لوحدتها ووجودها وهى بذلك تختلف عن الجسم فى خواصها فالجسم يخضع لعوامل النشوء والفساد ويقبل التحول والتغير والزيادة والنقصان، لأنه مركب من عناصر مختلفة .

أما النفس : فهى وحدة قائمة بذاتها ، أنها جوهر بسيط ، ولذا فمن الطبيعى ألا تخضع لنفس العوامل التى تؤثر فى الجسم فهى إذن ثابتة وباقية على حالها .

---

(١) راجع ص ١٦٣ ج : . د / محمد نصار فى الفلسفه الاسلاميه ، طبعه أولى سنه ١٩٨٣ مكتبه الانجلو المصرية .

يقول ابن سينا :

« تأمل أيها العاقل فى إنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجودا فى جميع عمرك حتى إنك تتذكر كثيرا مما جرى من أحوالك ، فأنت إذن ثابت مستمر لاشك فى ذلك ، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتامستمرا بل هو أبدا فى التحلل والانتقاص .

ولهذا : لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه ، فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة ، بل جميع عمرك . فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة (١) .

والمحدثون من علماء النفس يستدلون على وجود الشخصية باستمرار الحياة العقلية واتصالها .

وبهذا يكون ابن سينا قد سبق عصره حين كشف عن خاصية هى من أهم خصائص الحياة العقلية (٢) .

إن فى الإنسان إذن - كما يقرر فيلسوفنا - مبدأين اثنين :

مبدأ مادى هو دائما فى تحلل وانتقاص بحيث لا يبقى منه شيء بعد مضى مدة معينة لولا ما يعوضه من غذاء فيحل محله .

ومبدأ غير مادى لايتحلل ولا ينتقص بل يبقى من أول عمر الانسان حتى آخره منسابا هو هو طوال حياته على سطح الأرض ، فإذا مات توقف هذا المبدأ إنه (النفس) .

---

(١) رسالة فى معرفة النفس الناطقة ص ٩ .

(٢) انظر ص ١٤٥ ج ١ د . ابراهيم مدكور فى الفلسفة الاسلامية .

ومعنى ذلك أن الشعور أشبه بمجرى الماء فى الوادى ، أو بالتيار يهدر دون انقطاع ، إنه ديمومة متصلة لاتهدأ ، أو زمان حى لا تقف نبضاته إلا بالموت .

نعم . . . إن فيلسوفنا لم يستعمل كلمة تيار أو ديمومة ، ولكن هذا مؤدى كلامه ، فليست العبرة بالألفاظ ، وإنما العبرة بمعانى الألفاظ(١) .

ولقد تأثر بهذا البرهان من المعاصرين « وليم جيمس » و « برجسون » ويشبه الأخير الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض ، فأنتجت لحنا منسقا . كما يقرر « وليم جيمس » أنه من الصعب جدا أن نجد فى شعور واقعى حالة نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر . بحيث لا نكشف فيها أى شعاع من أشعة الماضى القريب(٢) .

ومما لا شك فيه أن فيلسوفنا قد استن فى البرهنة على وجود النفس سنة لم تكن معروفة من قبل بكل معالمها لا فى العالم اليونانى ولا فى العالم العربى الإسلامى .

والجدير بالملاحظة أنه ليس فى محاورات أفلاطون ـ على تعددها ـ مجهود يذكر لإثبات وجود النفس .

---

(١) انظر ص ٢٥٦ ، د . جميل صليبا : من أفلاطون إلى ابن سينا : طبعة خامسة دمشق ، و ص ٥٣٢ من الفلسفة اليونانيــــة إلى الفلسفة الاسلامية ، د . مرحبا .

(٢) ص ١٤٥ جـ ١ ، د . إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية .

كما ان أرسطو كذلك يعقد فى أكبر مؤلفاته السيكولوجية الباب الأول لمناقشة آراء السابقين فى ماهية النفس وخواصها دون أن يعنى كثيرا بإثبات وجودها .

وفى « التاسوعات » فصل طويل عن هبوط النفس لم يعرج فيه « أفلوطين » على وجودها(١) ، فكيف يمكن بعد ذلك أن يقال :

إن الفلسفة الاسلامية ترجمة للفلسفة اليونانية أو حلقة منفصلة فى تاريخ الفكر الانسانى .

---

(١) ص ١٤٩ ج ١ المصدر السابق .

ابن سينا وماهية النفس

إن النفس - عند ابن سينا - هى كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالإختيار الفكرى والاستنباط بالرأى ، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية ، وبأنها هى الشيء الذى له هذه القوى ، وهو جوهر منفرد وله استعداد نحو أفعال لايتم بعضها إلا بالآلات وبالاقبال عليها بالكلية وبعضها يحتاج فيه إلى الآلات حاجة ما ، وبعضها لايحتاج إليه البتة .

النفس جوهر قائم بذاته مستغن عن الجسم فى حين أن الجسم محتاج محتاج إلى النفس تمام الاحتياج ، فالجسم لا يتعين ولا يتحدد إلا إذا اتصلت به نفس خاصة ، بينما النفس هى هى سواء اتصلت بالجسم أو لم تتصل به ، ولا يمكن أن يوجد جسم بدون نفس لأنها مصدر حياته وحركته .

وعلى العكس تعيش النفس بمعزل عن الجسم ، ولا أدل على ذلك من أنها متى انفصلت عنه تغير وأصبح شبحا من الأشباح ، فى حين أنها بالانفصال والصعود إلى العالم العلوى تحيا حياة كلها بهجة وسعادة فالنفس إذن جوهر قائم بذاته لاعرض من أعراض الجسم (١) . ويقول ابن سينا أيضا :

إن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن ، وإذا مات البدن تخلص جوهر النفس من جنس البدن ، فإذا كان كاملا بالعلم والحكمة

---

(١) ص ٤٨٥ ج ١ الشفاء لابن سينا .

والعمل الصالح انجذب إلى الأنوار الإلهية وأنوار الملائكة والملأ الأعلى انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس وفاضت عليه السكينة وحققت له الطمأنينة فنودى من الملأ الأعلى :

(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وأدخلى جنتى)(١) .

وإذا كانت النفس جوهرا كما يقرر ابن سينا . فأى جوهر هى ؟

إن النفس ليست أى جوهر اتفق ، فهى ليست مثلا جوهرا ماديا خسيسا ، وإنما هى جوهر روحانى شريف . والدليل على أنها من الجواهر الروحانية إدراكها المعقولات والمعانى الكلية واشتمالها عليها وليس هذا من شأن الأجسام .

إن الحس لا يدرك صرف المعنى ولا يدرك الصورة إلا فى المادة وإلا مع علائق المادة وعوارضها المحسوسة من كم وكيف وأين ووضع .

أما النفس : فهى التى تتمكن من تصور المعنى بحده وحقيقته منقوضا عنه اللواحق الغريبة ، فليس من شأن المحسوس بما هو محسوس أن يعقل ، ولا من شأن المعقول بما هو معقول أن يحس .

إن الصورة المعقولة إذا وجدت فى العقل لم تكن ذات وضع بحيث إليها إشارة تجزؤ أو انقسام أو شىء مما يشبه هذا المعنى فلا يمكن أن تقع تكون فى جسم(٢) .

---

(١) ص ١١ — ١٢ ابن سينا رسالة فى معرفة النفس الناطقة .

(٢) ابن سينا النجاة ص ٢٩٠ .

ويقول ابن سينا :

(لا يجوز إذن أن تكون الذات القابلة للمعقولات قائمة فى جسم البتة ولا عقلها بكائن فى جسم ولا بجسم)(١) .

وعلى ذلك فإن الجوهر الذى هو محل المعقولات إنما هو جوهر روحانى غير موصوف بصفات الأجسام .

ويبرهن ابن سينا ببراهين كثيرة على أن النفس الانسانية جوهر روحانى وهذه البراهين تعود إلى أن أدراك المعنى المجرد - وهو الملكة الخاصة بالنفس الإنسانية التى هى محل الحكمة - يستلزم جوهرا عاقلا قائما بذاته غنيا عن الجسم - كما قلنا سابقاً .

يقول ابن سينا :

(وبعدما تقرر من هذه البراهين أنها جوهر ، وإذ قد أوضحنا أن النفس الإنسانية لاحاجة لها إلى الجسم فى قوامها للذات ، ولا استحفاظ الصور العقلية ولا فى الأفعال الخاصة بها ، إلا أنه ربما يقوم لها فى اكتساب المعقولات مقام الآلة . ثم إذا اكتسبها لم تحتج إليها البتة ، وأما إذا قويت فى ذاتها فقد تبلغ من الكمال ما لا يقع لها حينئذ حاجة عند التعقل إلى شىء جسمانى ولا قوة جسمانية ، بل تكره أعراض شىء منها عليها ، ويتجرد بتصريح ذاتها لاصدار فعلها ، فليس إذن فساد البدن يوجب بطلان ذاتها ولا يمتنع فعلها(٢) .

وتدعيم روحانية النفس بما ساقه ابن سينا ببراهينه المتعددة (٣)

---

(١) ص ٢٩٢ من المصدر السابق .

(٢) ابن سينا ص ١٢ رسالة فى السعادة .

(٣) برهن ابن سينا بعشرة براهين على روحانية النفس وجوهريتها فى رسالة تحمل عنوان (رسالة فى السعادة والحجج العشر على أن النفس الانسانية جوهرة) .

جعلته أثيرا لدى كثير من المفكرين الروحيين فى الشرق والغرب ، وتنوسى مذهب أرسطو فى النفس لأنه لا يقر روحيتها ، وأصبح مذهب ابن سينا هو السائد ، حتى قرر فخر الدين الرازى : أن العقول بروحيتها أصبح مذهب الفلاسفة بعد ابن سينا ، والغزالى ينهج فى شأن البرهنة على روحية النفس نهج ابن سينا ويرى أن هذا لا يتعارض مع الدين .

ولذا فقد لقيت هذه الفكرة قبولا حسنا لدى صوفية الإسلام بوجه عام .

كما كان لها أكبر الأثر لدى أصحاب الاتجاه الأفلاطونى فى المدرسة المسيحية فى العصور الوسطى ومطلع عصر النهضة ، وحتى المشائين منهم ، وفى مقدمتهم : « توما الاكوينى » . فإنهم كانوا لا يجارون أرسطو إلا بقدر وخاصة إذا اصطدمت آراؤه مع العقيدة الدينية (١) .

(١) د . إبراهيم مدكور ص ١٦٩ ومابعدها ج ١ .

حدوث النفس

كان أفلاطون يرى أن للنفس وجودا قبل البدن، وهذا مايرفضه فيلسوفنا، فالنفس عنده لا وجود لها قبل الجسم، وإنما هي حادثة معه.

والدليل على حدوثها أنها: «متفقة في النوع والمعنى، فإن وجدت قبل البدن، فإما أن تكون متكثرة الذوات. أو تكون ذاتا واحدة»(١).

ومحال أن تكون متكثرة الذوات، لأن هذا التكثر لا يكون إلا من جهة الماهية والصورة. أو من جهة العنصر والمادة.

قال الشهرستاني في تلخيص ذلك(٢)، وبطل الأول لأن صورتها واحدة، وهي متفقة النوع والمعنى لاتقبل اختلافا ذاتيا، وبطل الثاني لأن البدن فرض غير موجود، فلا يمكن أن تكون النفس متكثرة بالعدد قبل دخولها الأبدان.

ولا يجوز كذلك أن تكون واحدة الذات بالعدد، وتكون موجودة قبل البدن، لأنه إذا حصل بدنان حصل في البدنين نفسان، فإما أن تكون كل نفس من هاتين النفسين قسما لتلك النفس الواحدة، فيكون الشيء الواحد منقسما بالقوة، وهذا باطل، لأن الشيء الذي

---

(١) انظر النجاة ص ٣٠٠ لابن سينا.

(٢) ص ٢٣٦ القسم الثاني كتاب الملل والنحل تخريج بدران طبعة ثانيه مكتبة الانجلو المصرية.

ليس له عظم وحجم لا يكون منقسما ، وإما أن تكون النفس الواحدة بالعدد موجودة في بدنين . وهذا لا يحتاج إلى كثير تكلف في إبطاله .

ومعنى ذلك كله أن النفس لا تتعين ولا تتخصص إلا بواسطة الهيئات التى تلحق بها من الجسم ، ولا يمكن تصور وجودها قبله(١) . فهى إذن تحدث عند حدوث البدن المستعد لقبولها . ويكون البدن مملكتها وآلتها ، ويكون في هيئتها نزوع طبيعى إلى الاشتغال به واستعماله .

يقول ابن سينا :

(انظر إلى حكمة الصانع ، بدأ فخلق أصولا ، ثم خلق منها أمزجة شتى ، وأعد كل مزاج لنوع ، وجعل إخراج الأمزجة عن الاعتدال لاخراج الأنواع عن الكمال ، وجعل أقربها إلى الاعتدال الممكن مزاج الإنسان لتستوكره نفسه الناطقة(٢) .

(١) راجع ص ٢٤٧ د جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية .

(٢) انظر ص ١٢٠ ابن سينا الاشارات والتنبيهات : تحقيق د . سليمان دينا .

خلود النفس

لعبت فكرة خلود النفس ـ وما تزال تلعب ـ دوراً كبيراً في تاريخ الإنسانية ، وكان أثرها بالغاً على سلوك الفرد والجماعات ، ولقد تحدثت ـ عن الخلود ـ الأديان السماوية جميعا لاعتمادها على فكرة البعث والجزاء ، كما أشارت إليها نحل قديمة وحديثة وفلسفات كثيرة .

وكان قدماء المصريين على رأس المؤمنين بالخلود إذ أن هذا الخلود كان أبرز مافى العقيدة المصرية القديمة(١) . وكان اعتقادهم واضحاً بالحياة الأخرى وبالحساب . ودليل الثواب والعقاب الذى اصطنعه أفلاطون مقتبس عن براهينهم على خلود النفس فالحياة لا تكفى لتمام الثواب والعقاب . لذلك فإما أن تكون هناك حياة أخرى وخلود أولا تكون عدالة(٢) .

وقد كان الاعتقاد بالخلود والتناسخ أهم ما تقوم عليه النحلة الهندية التى تعتقد بأن الإنسان إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء معينة منه فانتصب طيرا هامة فيرجع إلى رأس القبر(٣) .

ولقد عنى فلاسفة اليونان بهذا الموضوع حيث اهتم أفلاطون

---

(١) انظر ص ١٩ ج ١ تاريخ الفلسفة العربية ـ الفاخورى والجر ـ دار الجيل طبعة ثانية سنة ١٩٨٢ بيروت .

(٢) ص ٥٨ د . محمد غلاب . الفلسفة الشرقية .

(٣) د . عبد الكريم العثمان ص ١٢٠ الدراسات النفسيه عند المسلمين القاهرة سنه ١٩٦٣ م

اهتماما كبيراً فوقف عليها محاورة كاملة من محاوراته هى محاورة «الفيدون» أو «الفادن» كما يسميها العرب(١) .

ولقد كان لفلاسفة الإسلام مجهود كبير فى هذا المجال ، وتحديد الكندى للنفس بأنها :

(جوهر منفرد عن الجسم مباين له وذهابه إلى خلود النفس بأنها باقية بعد فناء الجسد)(٢) يدل على مدى اهتمام فلاسفة الاسلام بالنفس وخلودها ، هذا الخلود الذى كان يؤمن به الكندى حيث يقول :

« أيها الإنسان الجاهل ألا تعلم أن مقامك فى هذا العالم إنما هو كلمة ثم تصير إلى العالم الحقيقى فتبقى فيه إلى أبد الآبدين(٣) .

ويبين الكندى أنه لامقام للنفس فى هذا العالم وأما (مقامنا ومستقرنا الذى نتوقع فهو العالم الأعلى الشريف الذى تنتقل إليه نفوسنا بعد الموت(٤) .

أما الفارابى فإن رأيه مضطرب فى هذا المجال لذا اختلف مؤرخو الفلسفة بين كونه مثبت لخلود النفس أو قائل بفنائها . فهو تارة يورد مايؤيد خلود النفس وتارة يبدو وكأنه يقول بالعكس(٥) .

وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى الذهاب إلى أن أبا نصر أنكر القول

---

(١) راجع د . محمود قاسم . دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص ٣٠
(٢) ص ١٣٠ دى بور . تاريخ الفلسفة فى الاسلام
(٣) انظر ص ٢٨٠ رسائل الكندى الفلسفية
(٤) المرجع السابق
(٥) ص ٢٤ تاريخ فلاسفة الاسلام محمد لطفى جمعه

بخلود النفس بينما هناك نصوص فارابية دقيقة أشار فيها بقول صريح إلى بقاء النفس ومفارقتها وانصالها بعد الموت وأنها صائرة بأفعالها الحسنة إلى أقصى السعادات ، وليس فى قواها ما يؤدى إلى الفساد أو التغير .

هذا يكفى لنقول : إن أبا نصر حين بدت منه أقوال مبهمة بهذا الخصوص ، لم تكن مبهمة بالنسبة له ، بل هى غامضة بالنسبة إلينا .

وعند تحكيم الرأى فيها نجد أن المقصود من أضعاف خلود بعض الأنفس الشريرة هو تحقيق لطبيعة العقيدة الدينية التى أكدت تطبيق الأنفس الإنسانية إلى مراتب فى سعادتها حسب أفعالها وصور هذه الأفعال : فمن كانت نفسه مثقلة بالخطايا . كان مصيره العذاب والآلام المبرحة ، ومن تطهرت نفسه فهو فى أعلى عليين مع الشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقا .

تلك هى إذن نظرة الإسلام وتلك هى نظرة الفارابى بالذات وعلى ذلك فليس الفارابى بمتناقض مع نفسه بل على العكس كان أمينا معها ولكن إدراك وفهم بعض الباحثين لهذه النصوص هو الذى قاد إلى هذه الأحكام المبشرة .

فمثلا نجـد المرحوم الدكتور محمود قاسم يخلط فى كتابه (فى النفس والعقل) بين قول يردده الفارابى عن القدماء وبين رأى الفارابى نفسه ! .

فقد جاء فى كتاب (التعليقات)(١) قول أبى نصر : (رأى القدماء

(١) ص ١٤ تعليقة ٥٣ : التعليقات الفارابى

أنه تتولد من هذه النفوس الإنسانيه ومن العقول الفعالة نفوس تكون هى الباقية ، والنفس الإنسانية فانية) .

فحكم الدكتور قاسم وغيره من المعاصرين بأن الفارابى يذهب إلى انكار فكرة خلود النفس الإنسانية . فى حين أن النص واضح الدلالة والمضمون ، فهو ليس للفارابى وإنما ينقل الفيلسوف رأى القدماء فحسب ، ولا تعليق عليه !

ويقع أيضا دى بور فى كتابه (تاريخ الفلسفة فى الإسلام) فيما وقع فيه غيره - بدعوى أن قضية النفس عند الفارابى غامضة والنص الذى اعتمد عليه والذى نجده فى كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة لا يدل على ما يقوله « دى بور » .

فالفارابى يرى أن الأنفس توجد منفردة بعد الموت وخلودها فردى وليس نوعيا ولفظة (المتشابهة) فى نص الفارابى مقصود بها التشابه بالمنزلة أى بأفعالها السابقة وليس المقصود التشابه بالمعنى كى يؤدى إلى الاتحاد؟ (١) .

---

(١) راجع ص ١٨٨ - ١٨٩ د . جعفر آل ياسين : فيلسوف عالم

ابن سينا وخلود النفس

لا مشاحة فى أن الشيخ الرئيس هو الفيلسوف المسلم الذى صاغ فكرة خلود النفس الإنسانية صياغة لم يسبقه إليها السابقون من أبناء جلدته .

ولعل أبحاث الفلاسفة الذين سبقوه وقد اطلع عليها أفادته أفادة كبرى بجانب اهتمامه الشخصى بهذا الموضوع بالذات اهتماما كبيرا ، فإذا ما أخذ يتحدث عن النفس وعن خلودها فإن حديثه عن هذا الخلود يطول حيث يعرض له ويكتب فيه ويجعله خاتمة البحث ونهاية المطاف ويرفض كل فكر يتعارض مع هذا الخلود ، ومنا هنا فإن فيلسوفنا يرفض الفكر الأرسطى فى هذا المجال أو بعبارة أدق يرفض التعريف الأرسطى للنفس لأنه يفضى إلى أنكار خلودها ، ويقدم الشيخ الرئيس عدة براهين على خلود النفس . منها :

برهان البساطة

إذا كانت النفس جوهرا بسيطا فمن المحال أن تحتوى على أمرين متناقضين وهما الوجود والفناء معا : لأن الوجود صفة ذاتية فى النفس ، فلو كان الفناء كذلك لأصبح البسيط مركبا من صفتين متناقضتين .

أما الجسم : فهو مركب من عناصر عدة تقبل الزيادة والنقصان والتجمع والتفرقة .

لذا فمن الطبيعى أن يلحقه الموت حين تتحلل أجزاؤه .

فقد اتفق الفلاسفة على أن كل تركيب خاضع للفساد . وإذا فنى الجسم المركب فإن هذا الفناء لا ينسحب على النفس ولا يكون سببا فى فناء النفس التى اتصلت به ، لأن النفس من البسائط ، والبسائط لا تنعدم ، لأنه ليس فيها جانبا القوة والفعل اللذان يبرران فناء الأشياء(١) .

---

(١) ابن سينا ص ٣٠٦ النجاة .

البرهان الميتافيزيقي

يعتمد ابن سينا فى هذا البرهان على طبيعة النفس فهى الجوهر الحقيقى للانسان ، وهى من عالم الأمر ، ولا بد من خلودها لبقاء خالقها وهى لا تفنى بفناء الجسد ولا تبلى بعد المفارقة عن البدن ، بخلاف الجسد فإن مصيره إلى الفناء حتما ، وليس فى هذا ما يضير النفس ، وذلك لأنها تحل فيه كما يحل الربان فى السفينة أو الملك فى المدينة فهى تدبره وتقوده إلى الفعل والإدراك . أنها تستخدم الجسم فإذا فسد هذا الجسم فلا يترتب عليه فساد النفس ، إذ الشىء يفسد بفساد شىء آخر إذا كان متعلقا به نوعا من التعلق ، والنفس فى جوهرها مغايرة للبدن فليست معلولة له ولا تعلق لها به حتى تتأثر بما يحدث له .

ومما يدل على بداهة هذا الأمر بأننا نعلم أن حواس المرء وإدراكاته تتعطل فى أثناء النوم فيصبح كالميت .

وهذا هو شأن الموت لأنه يوقف حركة الجسم نهائيا ويعطل حواسه ، ومع ذلك تظل النفس باقية ، زاد على ذلك أن الإنسان قد يرى فى أثناء النوم أمورا مغيبة صادقة لا يستطيع إدراكها فى أثناء يقظته ، وهذا دليل على استقلال النفس وبقائها .

إن النفس تشرف على البدن إشراف السيد على المسود والسائس على المسوس ، أو قل إن صلتها به إنما هى صلة الجوهر بالمضاف .

فالنفس من مقولة الجوهر وصلتها بالبدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها . بل يحتاج إلى شىء آخر هو المضاف إليه . فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه

بطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه ، ومثاله من يكون مالكا لشيء متصرف فيه ، فإذا بطل ذلك الشيء لم يبطل المالك ببطلانه ، إذ لا يقدح في شخص المالك ما يصيب ملكه من فساد كما لا يقدح في السيد أن يهلك مسوده (١) .

برهان المشابهة :

يقرر الشيخ الرئيس في هذا البرهان : أن النفس من عالم مفارق للمادة وهي حينئذ شبيهة بالعقول المفارقة .

ولما كانت هذه العقول خالدة ، كان ما شابهها خالدا مثلها يقول ابن سينا :

(إذا حصلت ما أصلته لك علمت أن أي شيء ما من شأنه أن يصير صورة معقولة ، وهو قائم الذات فإنه من شأنه أن يعقل ، ويلزم من ذلك أن يكون من شأنه أن يعقل . . . وكل ما يكون من هذا القبيل غير جائز عليه التغيير والتبديل(٢) .

هذا ومن المعروف أن فيلسوفنا هذا يجعل النفس البشرية في درجة أقل من درجة العقول والنفوس الفلكية .

ولذا فإنه لم يقدم لنا دليلا واحدا على أن طبيعة النفس

---

(١) ص ٣٠٣ النجاة لابن سينا وانظر رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها الفصل الثاني ص ١١ .

(٢) رسالة في معرفة النفس الناطقة ص ١٣ لابن سينا .

البشرية من طبيعة العقول المفارقة، وهذا ما جعل هذا الدليل عرضة للمناقشة (١) .

وبعد . . فهذه بعض البراهين التى ساقها الشيخ الفيلسوف مستدلا بها على خلود النفس الذى يراه ضروريا لتحقيق معنى الثواب والعقاب

وقد أثرت هذه البراهين فى الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى بعد أن ترجم « جندسالينوس » كتب ابن سينا إلى اللاتينية فتأثر بها البير الأكبر وتوما الاكوينى أيما تأثر(٢) .

ولقد اعتمد أبو حامد الغزالى على آراء ابن سينا فى خلود النفس وأنها تنطبق على كل نفس فردية ـ لكى يرد على أنصار النفس الكلية فآراء حجة الإسلام فى هذا المجال .

ـ كما يرى بعض الباحثين ـ لا تكاد تختلف فى قليل أو كثير عن آراء الشيخ الرئيس ، فهو يتبعه خطوة خطوة فى بيان صفاتها والبرهنة على وجودها وخلودها مما يدل على مدى تأثير ابن سينا على حجة الإسلام الإمام الغزالى (٣) .

---

(١) راجع ص ١٨٦ ط د . مدكور فى الفلسفه الاسلاميه بتصرف

(٢) راجع المصدر السابق ص ١٨٨ ج ١ .

(٣) انظر ص ٩٧ وما بعدها د . محمود قاسم : النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والإسلام طبعة ثالثة .

أثر ابن سينا

لن نطيل الحديث عن أثر فلسفة الشيخ الرئيس وآرائه فى كثير من العلوم والمعارف الإنسانية التى تتلمذ عليها نخبة كبيرة من الفلاسفة والمفكرين فى الشرق والغرب معا .

فطب ابن سينا فى كتابه : « القانون » الذى ترجم إلى عدة لغات والذى اعتمدت عليه جامعات أوربا عدة قرون ـ معروف للدنيا قاطبة ولا تقل فلسفته عن طبه فى التأثير والشهرة .

مرة أخرى لن نطيل فى بيان أثر فكر الرجل بعد أن قدمنا شيئا منه فى ثنايا هذا البحث ووقفنا على مقدار هذا الأثر من اعترافات المفكرين فى أرجاء الدنيا قاطبة .

ويكفى هنا أن نقرأ ما كتبته المستشرقة ا . م جواشون(١) عن أثر فكر فيلسوفنا إذ تقول بعد بيان أثر فلسفة ابن سينا على أوربا فى كتاب لها يحمل هذا الاسم .

(لقد رأينا تأثير ابن سينا كم هو عريض فليس من دراسة لأى مفكر من مفكرى القرون الوسطى إلا ربطت بينه وبين الفلسفة ، وكلما اندفعت هذه الدراسات نحو الأعماق رأينا بجلاء أوضح أن ابن

(١) انظر ص ١٣٠ . فلسفة ابن سينا وأثرها فى أوربا ؛ ترجمة رمضان لاوند دار العلم للملايين

سينا لم يكن فقط منبعا يغرفون منه بحرية ، بل هو أحد أساتذتهم في الفكر .

إنه أحد بضعة أعلام رجع إليهم الغرب بعد القديس أوغسطين وأرسطو — وكان أثره من القوة بحيث أن أحدا من النقاد يعجز عن تحديد ما عسى أن يكون الفكر الغربي في القرون الوسطى لو لم يتعرف إليه . ولذا فإن شخص ابن سينا كان يحاط بكل إحترام وتقدير ثم تقول :

إن بريطانيين وفرنسيين وإيطاليين وألمانيين اجتمعوا متحدين على دراسته .

وقد أشار جيلسون بشكل تفصيلي إلى التأثيرات السينوية على الفكر الأوربي في كتابه عن الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط .

وقد وقفتم على أثر فلسفة ابن سينا على فكر ديكارت من قبل وهو من فلاسفة العصر الحديث كما عرفتم شيئا قليلا عن أثر الرئيس في فكر حجة الإسلام الإمام الغزالي وغيره .

فلم يكن الأستاذ الرئيس ابن سينا مفكرا لمفكري عصره فحسب ، بل كان عبقرية فذة اقتحمت بملامحها القوية النادرة مسالك الطريق الوعر الذي قادها إلى أعمق جذور الفكر الإنساني ، محاولة بذلك استكشاف ما وراء الظواهر من بواطن الأمـــور التي خفيت حقيقتها على أنظار العامة من الناس ممن استعصى عليهم الوصول إلى إدراك ما ينبغي إدراكه بالقياس الذي يدركه الإنسان العالم والفيلسوف الحق !

ومن هنا فإن فكر ابن سينا لم يكن أقل نصيبا من غيره من عباقرة الدنيا وعظماء التاريخ ، لأن هذا الفكر للانسانية جماء معرفة وعلما وانتاجا .

وكما قال « ماكس مايرهوف » عنه :

(كان نموذج الطبيب الفيلسوف الطبيب الكبير فى علمه . وقد أحرز شهرة واسعة جدا فى الشرق والغرب واستطاع أن يسود العصور الوسطى إلى جانب أرسطو وجالينوس .

ويقول الأستاذ جورج سارتون – مؤرخ العلم المعاصر – :

إن ابن سينا ظاهرة فكرية ربما لا نجد من يساويه فى ذكائه أو نشاطه أو إنتاجه .

لقد كان لابن سينا فكر إنسانى جبار ، وعقل وثاب وحكمة بالغة وسورة ذهنية حادة حققت فى مجموعها طبيعة إنسان العصر ، كل عصر ،

ولسوف يبقى فكره شاغل الدنيا جيلا بعد جيل ما دامت هناك رؤية صادقة فى التعبير عن مواقف الفكر فى شىء ضروبه ووسائله .

وسوف اختم هذا البحث بهذه الكلمات المضيئة التى سجلها البارون « كارادى فو » فى نهاية كتابه « ابن سينا » إذ يقول .

« الآن . . . لا أريد أن أضيف إلى ما قدمته إلا كلمة وجيزة أعبر بها عن السرور الذى أحسست به فى قضاء بضعة شهور على صلة بأولئك الرجال (فلاسفة الإسلام) الذين كان لهم ثقة وإيمان بالعقل والدين

فيكروا على ضوء القانون المنطقى، والذين أبانوا فى كل لفظة ماتستطيع أن تحتمله من معان، والذين آمنوا بالحقيقة العامة واعتقدوا أنها خالدة ، والذين اعتبروا أن الفلسفة هى العلم ، والذين علموا الناس أن السياسية جزء من العلم ، والذين رأوا أن الدول يجب أن يحكمها الحكماء .

أولئك الرجال ذو القلوب الكبيرة الذين لم يكن إيمانهم بأن العقل محدود ، وأن فوقه نوعا من المعرفة البصيرية ، يحملهم على الاقلال من الاجلال الذى كانوا يحوطون به العقل .

أولئك الرجال ذو العقول الواسعة الذين يجدد امتداد معارفهم وتعددها بإثارة الحسد فى نفوس هواة المتخصصين من العلماء فى عصرنا الحاضر مادام أولئك القدماء قد حاولوا بكل ما أوتوا من قوة فى عصورهم أن يفهموا جميع النظريات والمذاهب ولم يعرفوا أى حائل يقف بينهم وبين البحث العقلى .

أولئك الذين أرادوا أن تكون جميع حقـــول النشاط البشرى متفتحة أمامهم . والذين نزلوا وصعدوا بسهولتين متعادلتين كل درجات سلم الكائنات : من الأرض العميقة إلى الفلك الأعلى ، ومن ظلام المادة غير القابلة للادراك إلى بهر نور العقل المجرد بقدر ما تسمح به طبيعة الذهن البشرى(١) .

لقد كان ابن سينا – بحق – رجلا عظيم الذكاء عظيم الشهرة عظيم النشاط ، أصبح اسمه أشهر الأسماء بين فلاسفة الشرق وأطبائه .

---

(١) راجع ص ١٢ د . محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين

ولذا فإننا لا نخفى أعجابنا بابن سينا ولا نتردد فى إفاضة الثناء عليه فقد فتح الطريق أمام من جاء بعده ، بل لقد جاء سابقا لعصره فى بعض المجالات التى درسها وهذه سمة العبقرية ومن هنا جاء تأثيره فيمن أتى بعده من فلاسفة ومفكرين .

رحم الله أبا على فقد كان صادقا مع نفسه ومجتمعه ، واعيا إلى العلم والمعرفة ، متوجها إلى مبدع الكل يطلب العون والتوفيق . . . فهو الآن — بعد رحيله من هذه الدنيا — عند رب غفور رحيم .

هذا وبالله التوفيق ؟

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ ابن سينا والنفس البشرية — البير نادر

٣ ـ ابن سينا — العقاد ـ طبعة ثانية دار المعارف ـ القاهرة

٤ ـ الإشارات — لابن سينا تعليق د. دنيا ـ قسم المطبوعات

٥ ـ أرسطو عند العرب — د. عبد الرحمن بدوى

٦ ـ تاريخ الحكماء — القفطى

٧ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية — يوسف كرم

٨ ـ « حكماء الإسلام — البيهقى

٩ ـ « الفلسفة فى الإسلام — دى بور ترجمة أبو ريدا

١٠ ـ « « العربية — د. جمال صليبا

١١ ـ « « « — الفاخورى وآخر

١٢ ـ « فلاسفة الإسلام — محمد لطفى جمعة

١٣ ـ التفكير الفلسفى فى الإسلام — د. عبد الحليم محمود

١٤ ـ التفسير الكبير — الفخر الرازى

١٥ ـ التعليقات — الفارابى

١٦ ـ دراسات فى الفلسفة الإسلامية — د. محمود قاسم

١٧ ـ الدراسات النفسية عند المسلمين — د. عبد الكريم عثمان

١٨ ـ رسائل إخوان الصفا — تصحيح خير الدين الزركلى

١٩ ـ رسالة القوة النفسانية — لابن سينا

٢٠ ـ رسائل الكندى الفلسفية

٢١ ـ رسالة فى معرفة النفس الناطقة — لابن سينا تحقيق الفندى
٢٢ ـ السراج المنير — للخطيب الشربينى
٢٣ ـ الشفا — لابن سينا
٢٤ ـ عيون الأنباء — لابن أبى أصيبعة
٢٥ ـ الفلسفة القرآنية — للعقاد
٢٦ ـ الفوز الأكبر — لابن مسكويه
٢٧ ـ فى الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية — د. عوض الله حجازى
٢٨ ـ الفلسفة فى الإسلام — د. عرفان عبد الحميد
٢٩ ـ فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه — د. إبراهيم مدكور
٣٠ ـ فيلسوف عالم — د. جعفر آل ياسين
٣١ ـ الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا — د. العراقى
٣٢ ـ فلاسفة الإسلام — د. فتح الله خليف
٣٣ ـ فى الفلسفة الإسلامية — د. محمد نصار
٣٤ ـ الفلسفة الشرقية — د. محمد غلاب
٣٥ ـ فلسفة ابن سينا وأثرها فى أوربا — ترجمة رمضان لاوند
٣٦ ـ قصة الفلسفة اليونانية — أحمد أمين
٣٧ ـ الكشاف — الزمخشرى
٣٨ ـ كشف الظنون — حاجى خليفة
٣٩ ـ المدخل إلى الفكر الفلسفى عند العرب — د. جعفر آل ياسين
٤٠ ـ مبادىء الفلسفة — رابو برت ترجمة أحمد أمين
٤١ ـ مجلة المقتطف — عدد ابريل ١٩٥٢ م
٤٢ ـ المعرفة عند مفكرى المسلمين — د. محمد غلاب
٤٣ ـ مؤلفات ابن سينا — الأب قنواتى
٤٤ ـ المقدمة — لابن خلدون

٤٥ ـ من الفلسفة اليونانية للفلسفة الإسلامية — د . مرحبا

٤٦ ـ محاورة فيدون — لأفلاطون

٤٧ ـ مذاهب فلاسفة الشرق — د . العراقي

٤٨ ـ من أفلاطون لابن سينا — د . جميل صليبا

٤٩ ـ الملل والنحل — الشهرستاني تخريج بدران

٥٠ ـ النفس والعقل لفلاسفة الإسلام — د . محمود قاسم

٥١ ـ النجاة — لابن سينا

٥٢ ـ وفيات الأعيان — لابن خلكان

فهرست

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٩٢ / ٨٧

فهرست

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٩١ / ١٩٨٧

دار [illegible] للطباعة
سامى عبد اللطيف وأولاده
منشية الصدر — [illegible]